

حلمي مراد

رباعيات عمر الخيّام

وكتب أخرى



مر بى عاشق الورود صباحا / بعدما زار نرجسا وأقاحا

وشذا الروض من جناحيه فاحا / فالربيع الزاهى المعطر وافى

وليالى الربيع كن قصارا / وهزار الشباب غنى وطارا

يا هزار الشباب ماكنت أرضى / منك هذا ، تعال غن تعالا

عمر الخيام (نظم وديع البستاني)



أولى بهذا القلب أن يخفقا — وفى ضرام الحب أن يحرقا
ما أضيع اليوم الذى مر بى — من غير أن أهوى وأن أعشقا

عمر الخيام (نظم احمد رامي)

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر اول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب العشرون (السنة الثانية) : اكتوبر ١٩٥٣

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة

تليفون ٦٥٦٠٨

كتابى يصدر عددا خاصا فى ١٠ اكتوبر ..

عزيزى القارىء ...

◆ فى سنة ١٩٣٦ قرأت «قصة مدينتين» لاول مرة ــ فقد قرأتها بعد ذلك مرتين أخريين ! ــ ومنذ ذلك التاريخ وأنا أتوق الى اليوم الذى أستطيع فيه أن أقدمها اليك بالعربية ، **كى تتبلور فى ذهنك ــ كما تبلورت فى ذهنى ــ أروع وأكمل صورة للثورة الفرنسية الكبرى وأحداثها الخطيرة ، التى أحدثت فى تاريخ البشرية اكبر انقلاب عرفته على مر الاجيال ، وكانت نقطة تحول العالم الغربى من عصور الطغيان والفساد الى عصر الحرية ، والاخاء ، والمساواة** .. بل ان تلك الثورة وان لم يبلغ أثرها «المادى» بلاد الشرق ، إلا أنها أرسلت اشعاعها الفكرى الى كافة اقطار المعمورة ، فكانت النبراس الذى يتطلع الاحرار فى كل بلد وكل عصر الى بعث أوطانهم على هديه ..

لذلك سرنى أن اختارت وزارة المعارف المصرية لطلبة «الثقافة» فى العام الدراسى الجديد هذه القصة الخالدة ، التى لا تكتمل ثقافة انسان فى أدب الثورة ، وأدب الحرية ، الا بقراءتها .. واستيعابها .. والاستمتاع بالحياة فى جوهـــا !

ومن ثم رأيت أن انتهز هذه الفرصة فأقدم لك ، بالعربية ، هذه القصة الطويلة التى يقرأها بالانجليزية فى هذا العام الدراسى شقيقك الطالب ، أو ابنك ، أو قريبك .. **كيما تشاركه ــ وتشاركنى ــ متعتها ، وفائدتها ، وعبرتها .. وتعيش معنا فى جوها الحبيب ، بصحبة ابطالها الخالدين ــ الذين لن تنساهم : سيدنى كارتون ، ودكتور مانيت ، وتشارلس دارنى ، ومدام ديفارج ، وجيرى كرانشر ، ومستر لورى ، ومس بروس ، و«فنجانس» ــ زعيمة الثائرات فى حى سان انطوان ــ واعوانها السريين : جاك الاول ، وجاك الثانى ، والثالث ، والرابع ، والخامس !!**

ولما كنت لا أريد أن احرمك فى أى عدد من أعداد «كتابى» من شتى ابوابه التى أحببتها وألفتها .. فقد رأيت أن أصدر بهذه القصة الطويلة عددا خاصا من «كتابى» ، يطالعك باذن الله فى العاشر من أكتوبر الحالى

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

كتابى

اعداد نفدت

كتابى الاول : « خطايا الحب » وكتب اخرى مارس ١٩٥٢
كتابى الثانى : « قلب عذراء » « « ابريل «
كتابى الثالث : « الهاربة من الجنة » « « مايو «

أعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى الرابع **((حواء الجديدة))** ، والخامس **((أحدب نوتردام))** ، والسادس **((جريمة حب))** ، والسابع **((عشيقة نابليون))** ، والثامن **((مذكرات كيوبيد))** ، والتاسع **((صنم تحطم))** ، والعاشر **((حديقة الله))** ، والحادى عشر **((عندما تحقد المرأة))** ، والثانى عشر **((لعبة الحب والموت))** ، والثالث عشر **((توبة خاطئة))** ، والرابع عشر **((ايها الربيع ترفق))** ، والخامس عشر **((الشيطان على الارض))** ، والسادس عشر **((ليدى هاملتون))** والسابع عشر **((الارملة المرحة))** ، والثامن عشر **((حياة جورج صاند))** ، والتاسع عشر **((حياة سارة برنار))** ..

◆ وتطلب من صاحب كتابى ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة (عمارة الجندول)، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص أجر البريد (المسجل) ، ماعدا الاعداد الثلاثة الاولى التى نفدت ، والعدد السادس (وثمنه عشرون قرشا ، تحديدا للطلبات نظرا لقرب نفاده وعدم امكان اعادة طبعه) .. وما عدا العددين ١٣ ، و١٦ (الممتازين) ، وثمن كل منهما بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد **MONEY ORDER** ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذونات البريد الخارجية . وتحرر الاذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا .

الاشـــــتراكات

◆ وتشمل ضمنا الاعداد الممتازة ايضا ـ وترسـل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة

◆ قيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٠٠ قرش ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٥٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسل القيمة بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد فى كل بلد **MONEY ORDER** وتحتسب القيمة بما يوازى ١١٠ قروش (عن سنة) و٦٠ قرشا (عن نصف سنة) ـ أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب شركة فرج الله للمطبوعات في بيروت وفي بغداد (بشارع السنك ، بغداد)


عائدة
مع الدموع
قصة مصرية
للمحرر

البحر يهدر هديره الصاخب المتصل ، الذى يسمع فى سكون الليل من بعيد ، كغمغمة خافتة تنطق بها مئات الارواح الخفية ، فى لغة غير مفهومة ..

.. **والموج** مقبل يتدافع ويتواثب ، حتى يبلغ الشاطىء الوادع ، فيلطمه أو يلثمه ..!

و « **بسيمة** » يقظى ، قد جفاها النوم ..

كانت قد ألقت بجسدها المتعب فوق مقعد طويل فى غرفة (الممرضة النوبتجية) منذ بداية الليل .. ثم أغمضت عينيها ، وصمت أذنيها ، ودعت النوم اليها .. ولكن عبثا ، فان وعيها استعصى عليها ..

وأنى لها أن تنام ، وهذا الجرس الاخرس لا يفتأ يخطف النعاس من جفنيها كلما راق لمريض أن يستدعيها كى تلبى له طلبا أو تخفف من بلواه ، بنظرة ناعمة ، أو لمسة ندية ، أو همسة حنون ؟ **انها لضريبة قاسية هذا الواجب الانسانى الذى يفرض عليها أن تبذل دائما ، وبسخاء .. تبذل ولا تمل ، أو تمن .. وتريق أنوثتها وحنانها بلسما للجريح ، والسقيم ، والمحموم . أن تبتسم أبدا ولو كان قلبها يبكى .. وتضمد الجراح ولو كانت هى الجريحة !**

انها قد بدأت تضيق بهذه الحياة الكئيبة ، وهذا الجو البغيض . لم تعد تطيق العيش فى ظل العراك الدائب الرهيب بين البقاء والفناء ، بين الحياة والموت ..

الموت ! ويح هذا المارد الجبار الذى لا يرحم ، ولا يفتأ يذرع أروقة وعنابر المستشفى بخطاه الواسعة ، وضحكته الصفراء ، وأنيابه السود .. حاملا منجله المخضب بالدم ، يحصد به أرواح ضحاياه !.. لكم وقفت أمامه وجها لوجه حول فراش

مريض ، تنازعه حياته ، وتصارعه بالطب والدواء ، حتى تغلبه ٠٠ أو يغلبها !٠٠ ان العراك بينهما مباراة متعددة الجولات ٠٠ وعقب كل جـولة كانت تخرج من المعركة منهوكة القوى ، مضعضعة الحواس ، أحوج ما تكون الى دمعة تبكى بها نفسها ، قبل أن تبكى مريضها الذى ذهب ٠٠ فانها لا تستطيع أن تنسى أنها قد جاوزت الثلاثين ، ولم تتزوج !

وان هذه الفكرة لتطن فى رأسها طنينا مزعجا ، فان الاعوام تنصرم من حياتها بسرعة موجعة ، والزمن يطوى صفحة شبابها فى غير رفق ٠٠ **وانها لتحس بالجفاف والذبول يدبان في بدنها دبيبهما المخيف ، فيمتصان النضارة من عودها قطرة قطرة ، ويرسمان على وجههـا بالغضون والتجاعيد طالعها التعس : عانس !**

يا للهول ٠٠ ان الرعب يلهب أحشاءها كلما طالعتها المرآة بهذه الكلمة المشئومة مكتوبة على جبينهـا بأحرف من نار ٠٠ وانها لتحس لها فى نفسها وقعا أقسى من وقع السياط ، كلما مر بخاطرها أن القطار الاخير ٠٠ فاتها أو أوشك !

ولكن كيف ؟ كيف فاتتها القطارات السابقة العـديدة : (بولمان) الثامنة عشرة، والعشرين٠٠ و (اكسبريس) الخامسة والعشرين ٠ و (قشاش) الثلاثين ؟٠٠ هل مرت جميعهـا بمحطتها مسرعة دون أن تقف ٠٠ أم وقفت فتركتها هى تمضى دون أن تركب ؟ ولماذا ؟

*

عشرة أعوام الى الوراء ٠٠!

أتذكرين يا بسيمة ؟٠٠ رمل الاسكندرية فى أبهى ليـالى الصيف ٠٠ فندق (سان استيفانو) يعج بالشبان والحسان٠٠ ونسائم الامسية العذبة تلهب النشوة فى القلوب والابدان ٠٠ وأنت فى بهجـة العشرين ٠٠ فهل كان يمكن أن يحدث غير ما حدث ؟



كانت فورة الشباب تضطرم فى وجنتيــك ، ومرح الانوثة الباكرة يرقص فى حـدقتيك ، والدنيا أجمل ما تكون فى عينيك .. شباب وحسـن وجاه !.. وكنت تجلسين مع أبيك حول احدى موائد العشـاء ، وردة ناضرة تزهو على الدنيا بعطرها وتفتح أكمامها للحياة .. حين أبصره أبوك يجلس وحيدا الى مائدة قريبة ، فتبادلا التحية . ثم كأنما عزت عليه وحدته فدعاه الى مائدتكما ، وقدمه اليك ببضع كلمات ، فهمت منها أن الفتى يعمل سكرتيرا لابيك فى الشركة التى يديرها ..

وكانت البداية !

البداية لقصة هوى مشبوب لم تشهد مغانى الاسكندرية فى ذلك الصيف له مثيلا !

كيف أحببته يا بسيمة .. ولماذا ؟ لعلك لا تذكرين ، ولو ذكرت لا تفهمين .. فانه لم يكن فتى وسيما ، أو ذا مظهر يلفت اليه قلوب الحسان .. **لكن قلبك لم يكن فى حاجـة الى كبير عناء كي يلتفت ، ويتعلق ، ويتدله .. فقد كان ظمآن للهوى يكاد يقتله الظمأ ! كانت أحاديث الحب وقصص الهوى تملأ أذنيك من الخارج وتغذى أحلامك .. وخفقات الوجدان ترف بين ضلوعك من الداخل رفيفا لحوحا .. كنت فى احدى تلك اللحظات التى تستخفنا فيها بهجة الشباب فنحب أول من تضعه الاقدار فى طريقنا . نحبه حبا فى الحب ! نحبه لكى يحبنـا**

لكن المصائب لا تأتى فرادى يا بسيمة .. **ففى ضربة أخرى من ضربات القدر الغشوم قامر أبوك بماله ، ثم برصيد الشركة، فى بورصة القطن فأطاحت « الكونتراتات » بالكل .. وآثر المسكين الفرار من المأزق من أقصر طريق : برصاصة أفرغها فى رأسه ، ذات ليلة ليلاء !**

وتركت الفراش أخيرا لتواجهى قسوة الحياة وحيدة محطمة، عزلاء من كل سند . وكانت أشهر المرض قد وطدت صداقتك بممرضات المستشفى ، فانخرطت فى سلكهن .. انتقلت من غرفة المريضة الى غرفة الممرضة !

وعادت الساقية تدور ..

*

وأنت تعرفين البقية ..

أربع سنوات وشـهران وأنت كالبقرة المعصوبة العينين تدورين فى هذه الطاحونة التى لا ترحم ولا تعرف الهوادة : موت وحياة ، وكروب وأوجاع ، وأمل ويأس .. وجوه تذهب ووجوه تجىء .. أعمار تولد وأعمار توصل وأعمار تنقضى .. هذا يدخل باسما ويخرج ملفوفا فى الاكفان ، وتلك تقبل فى الرمق الاخير وتدبر موفورة الحياة .. أعوام أربعـة وأنت تتنفسين ، وتصبحين وتمسين ، فى دنيا كلها تئن وتتمخض.. لا رفيق لشبابك ولا مؤنس لوحشتك غير ذلك المارد الرهيب ذى الانياب السود والضحكة الصفراء ، الذى لا يفتأ يذرع عنابر المستشفى ومنجله الاحمر المخيف فى يده ، يحصد به الارواح !

أربعـة أعوام نسيت فيها نفسك وشبابك ، وماضيك ومستقبلك ، وانقطعت لعملك الشاق تدفنين فيه شجنك وتفنين أيامك ، الباقية .. ومن يدرى كم بقى منها ، ومتى يجىء دورك فيشهر المارد منجله المخضب بالدم فى وجهك ؟

ألا ليته يتعجل ... فما جدوى الانتظار يا بسيمة ؟ ما جدوى

فنحب أنفسنا فيه ! ٠٠ ثم نتنبه آخر الامر ، فاذا نحن قد تورطنا فى أسر ذلك الوهم الكبير الذى لا نملك الفكاك منه ، لاننا لا نريد الفكاك !

❖

ومضت شهور ٠٠ فعام ٠٠ فأعوام ٠٠ وعقلك يهتف بك فى ضراعة كلما تقدم لخطبتك أحد : « وبعد يا بسيمة !٠٠ وما آخرة هذا الغرام العقيم والاخلاص المقيم ٠٠ للفتى العابث ؟ »

لكن الفتى كان مظلوما ، فانه لم يعد ويخلف الوعد ٠٠ وانما لاذ بالصمت عن كل مفاتحة فى أمر الزواج أو عهد ! ورغم ذلك فانك لم تقنطى أو يساورك اليأس ، بل لبثت تتسقطين آمالك المعلقة بكلمة تخرج من فمه ٠٠ وكلما طالبك بتضحية جديدة يروى بهاشبابه، منحته اياها راضية٠٠ قربانا و«برهانا» على حبك !٠٠ وكلما أنبك ضميرك أو داهمك القلق على مصيرك همس فى أذنك الشيطان : « **أيتها الجميلة الساذجة ٠٠ أما تعلمين أن المجتمع يغفر الخطايا للجميلات ؟** »

والاعوام تتتابع وأنتما فى حبكما سادران ، تذرعان بحاره على غير هدى ٠٠ دون أن تقتربا خطوة من شاطىء الامان !

الى أن صادفتكما الصخرة العاتية التى تتربص دائما بسفينة المحبين : فاجأته يوما فى صحبة ٠٠ أخرى !

وحين سألته للامر تفسيرا ، نكس رأسه فى ذلة ولم يجب٠ وفيم الحاجة الى تفسير وقد كانت الاخرى أنضر منك ، وأصبى ٠٠ زهرة يانعة فى الثامنة عشرة ٠٠ وأنت قد بلغت السابعة والعشرين ؟

وكانت الصدمة أقسى من أن تحتملها أعصابك ، فانهارت ٠٠ ودفعت ثمن انهيارها شهورا ثلاثة قضيتها طريحة الفراش في المستشفى ٠٠ هذا المستشفى بالذات ٠٠



وفى لحظات كانت الى جوار الطبيب تتهيأ لمناولته السلاح.. ورفع الغطاء عن وجه المصاب . رباه ! انه هو .. انه هو !.. وأفلتت من فمها شهقة حادة : « يوسف ! »

ثم تهاوت على بلاط الغرفة.. مغمى عليها !

❊

ويسدل ستار

ويرتفع ستار .. وقد انقضى اسبوعان :

ــ بسيمة .. رفقا بأعصابى .. قولى انك صفحت ، وقبلت. أما كفانى ما قاسيت طيلة هذه السنوات الاربع .. ألم يرق قلبك لقصتى ؟

ــ ....

ــ بسيمة ... كفاك اذلالا وانتقاما ... أما ترين اصبع القدر وراء الحادث الذى أصابنى ؟ انه تدبير آلهى ، كى نلتقى من جديد . ونبنى معا عشنا السعيد ..

ــ ... ...

ــ شكرا يا بسيمة .. تكفينى جوابا هذه الابتسامة الغالية، المبللة بالدموع . انها هدية العمر للمحب الضال الذى ذهب.. ثم عاد .. مع الريح !

هذه الحياة القاتمة المملة التى لا خير فيها ؟ ماذا فيها يغريك بالبقاء ؟٠٠ هل من أمل يلوح فى الافق ويعدك بمضير أرحم ؟ كلا ، لا تخدعى نفسك وتمنيها بالاباطيل ٠ انك ستعيشين وتموتين فى هذا الجو المقبض الكئيب ٠ وسوف تشيخين عانسا شمطاء عابسة الجبين ممرورة النفس ، محرومة من الزوج والولد ٠٠ والعائلة السعيدة !

هذا هو الواقع المرير يا بسيمة ٠٠ لقد فاتك القطار الاخير! ٠٠ ولم يعد فى وسعك حتى أن تقذفى بنفسك تحت عجلاته ٠٠ **ولكن ، تمهلى ٠٠ ربما بقيت أمامك فرصة أخيرة ٠٠ أنظرى يا بسيمة ٠٠ الى البحر !٠٠ أترين صفحته السوداء ، التى لا تحدها نهاية ٠٠ انها عميقة عميقة ليس لها قرار ، وفى وسعها أن تتلقاك على صدرها الرحيم كما تتلقى جميع المتعبين فتريحهم من أثقال الحياة !٠٠ هيا يا بسيمة ٠٠ ان الامواج تناديك ، فتشجعى ٠٠ ما هى الا لحظات حتى ينتهى كل شىء ، وتسكن همسات الموج ، ويغيب الوجود ٠٠ وينقضى آخر عهدك بهذا العالم الفانى الملىء بالاوجاع ٠ حقا يا بسيمة ، تعب كلها الحياة!**

*

والبحر ما يزال يهدر هديره الصاخب المتصل ٠٠

والموج لا ينى يلطم الشاطىء ، أو يلثمه !

وبسيمة متكئة على حافة شرفة المستشفى المطلة على البحر ، تحدق بنظرات زائغة فى مياهه العميقة السوداء !

وانها لفى خضم هواجسها ، وصوت مفاجىء يناديها :

– مس بسيمة ! مس بسيمة !

– ماذا يا محمود ؟

– أسرعى الى غرفة العمليات ، حالة جديدة مستعجلة من المطار !

يا رب ! أما من نهاية لهذا الجحيم ؟

اقرأ . . قريبـــا

◆ « .. كان برميل كبير من النبيذ قدسقط وانكسر فيشارع (سان انطوان) ، فتدفق منه النبيذ الاحمر فوق أرض الشـــارع الحجرى ، وانساب بين شقوق الحجارة الخشنة ، وتكونت منه بحيرات صغيرة فى جحورها المنخفضة .. وسرعان ما ترك أهل الحى القريبون من المكان أعمالهم وهرعوا نحوه لينالوا نصيبا من النبيذ قبل أن تشربه الارض .. فركع بعضهم وحاول أن يجمع جرعات منه فى يديه ، ولكن أكثره كان ينساب بين أصابعهم قبل أن يبلغ أفواههم !.. وجاء نفر منهم بأكواب وحاولوا أن يملأوها .. بينما غمس آخرون خرقا من القماش فى النبيذ وعصروها فى حلوقهم .. وهكذا رنت فى شارع الفقر والبؤس بعض الضحكات الجذلة ، لبضع لحظات .. ولكن سرعان ما جف كل النبيذ ، وماتت الضحكات ، وعاد التعساء الى ما كان يشغلهم من قبل ..

وقام رجل طويل القامة فغرس اصبعه فى وحل الطريق ، الذى احمر من لون النبيذ ، ثم كتب على الحائط أربعة حروف كبيرة قانيـــة : « الدم ! »

ولسوف يأتى يوم تتدفق فيه الدماء فى شوارع حى « سان انطوان » فتحيل أرضها الى حجارة حمراء ! »

من « قصة مدينتين » ،

القصة الطويلة التى خلدت اسم

مؤلفها الروائى الكبير « تشارلس ديكنز » ،

والتى يصدر بها - لاول مرة - عدد خاص

فوق العـــادة من « كتابى » يوم ١٠ أكتـوبر الحالى

أوص بائع الصـــحف عـــلى نسختك بالحاح من الآن

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى (التمثيلى.. والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية من (كتابى) المسرحيات العالمية الآتية على التوالى :

خطايا الحب : لاوسكار وايلد
الحب الآثم : تولستوى
نزاهة الحكم : جوجول
سلاح المرأة : اريستوفان
فولبون : بن جونسون
جيوكندا : دانونزيو
كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
مدرسة الفضائح : شيريدان
سيرانو دى برجراك : روستان
لعبة الحب والموت: رومان رولان
مروحة الليدى وندرمير : اوسكار وايلد
فاوست : جيته
اوديب الملك : سوفوكل
فى سبيل الحب : جون درايدن
وليم تل : شيللر
الام : مكسيم جوركى

واليوم اقدم لك فيما يلى هذه المسرحية الغنائية المشهورة المقتبسة عن دراما لفيكتور هوجو صادرتها الحكومات الملكية فى فرنسا مرارا قبل أن يسمح بتمثيلها فى باريس لاول مرة فى سنة ١٨٥٧

.. وفى الاعداد القادمة اقدم لك بأذن الله المزيد من هذه الروائع العالمية .. الخ



الملك يلهو !

(ريجوليتو)

لأديب فرنسا الكبير : ڤيكتور هوجو

ريجوليتـــو

اوبرا من ثلاثة فصول ـ موسيقى «فردى» ـ مقتبسة عن مسرحية «الملك يلهو» لفيكتور هوجو ـ مثلت لاول مرة بمسرح (فنيس) بمدينة البندقية فى ١١ مارس سنة ١٨٥١ ، وفى مسرح (كوفنت جاردن) بلندن فى ١٤ مايو سنة ١٨٥٣ ، وفى مسرح «الايطاليين» بباريس فى ١٩ يناير سنة ١٨٥٧ (نظرا لمصادرة الحكومة لها قبل ذلك التاريخ !) .. ثم مثلت على مسرح أكاديمية الموسيقى بنيويورك فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٥٧ .. وعند زيارة المغنى العالمى «كاروزو» لامريكا بدأ جولته بتمثيل دور «الدوق» فى (ريجوليتو) على مسرح متروبوليتان المشهور فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٠٣

الادوار

دوق مانتوا ـ مضحكه المهرج الاحدب «ريجوليتو» ـ جيلدا (ابنة ريجوليتو) ـ الكونت سيبرانو ـ الكونت مونتيرون ـ سبارا فوسيل ـ الكونتة سيبرانو ـ مادلينا (شقيقة سبارا فوسيل)

الزمان : القرن السادس عشر

المكان : مانتوا ـ بايطاليا

- ١ -

◆ **نحن** فى صالون بقصر « دوق مانتوا » يفضى الى أجنحة خلفية للقصر ، والابهاء كلها مضاءة بالانوار الباهرة احتفالا بالعيد .. النساء والندماء والخدم يروحون ويجيئون فى كل اتجاه .. تسمع موسيقى وأصوات ضحكات منبعثة من القاعة الملحقة بالصالون .. ثم يدخل الدوق الشاب من المؤخرة ومعه سكرتيره الخاص « بورصا » ، وهما يتحدثان عن فاتنة مجهولة تدعى « جيلدا » رآها الدوق فى الكنيسة فأعجبته .. وهو ينوى أن يمضى فى المغامرة الى النهاية ، غير عابىء بالزائر الليلى المجهول الذى سمع انه يزور الحسناء كل مساء !

ويلمح الدوق بين ضيوفه « الكونتة سيبرانو » التى يغازلها علانية منذ زمن ـ رغم استياء زوجها الواضح ! ـ فيتجه نحوها ٠٠ انه لا يعبأ بما قد يراه الغير فى غرامياته ، وخاصة بآراء الازواج فى هذا الصدد ٠٠ بل انه لا يبالى بالقدر نفسه ، وانما هو يتنقل من غرام الى غرام كالسائح حين يتنقل من بلد الى بلد، والنساء من جميع الطبقات يستجبن لعواطفه كالمسحورات ، رغم ادراكهن لخطورة أهوائه ونزواته ٠٠

ويقبل المهرج الاحدب « ريجوليتو » حاملا قيثارته ومرتديا على رأسه قلنسوته التى تتدلى منها الاجراس ، فيقترب فى نشاط وخفة من الكونت سيبرانو ، ويخصه بسخريته ونكاته اللاذعة ٠٠ لكن الكونت يصرف همه الى مراقبة زوجته التى تبتعد وقد تعلقت بذراع الدوق ! **وحين يخرج ريجوليتو للبحث عن ضحايا جدد من النساء لسيده الدوق ، زير النساء ، يهمس واحد من النبلاء لزملائه بنبأ غريب ، هو أن الاحدب ـ برغم عاهته ـ يتخذ له عشيقة ! وانه يزورها كل ليلة بعد حلول الظلام فى مسكنها بأحد الشوارع الهادئة٠٠**

ويقع النبأ من الكونت سيبرانو موقع الاهتمام ، اذ يجد فيه فرصة للانتقام من المهرج الذى كان معوانا لسيده على ثلم شرفه ٠٠ وبعد لحظة يعود الاحدب مرة أخرى بصحبة سيده الدوق ، فيلذع النبلاء بنكتة أخرى من لسانه القـــارص ، تلقى منهم الامتعاض الشديد ٠٠ وعندئذ يتواعد الكونت معهم على اللقاء فى مساء اليوم لتالى وهو الكفيل بأن يتيح لهم فرصة الاقتصاص لانفسهم من المهرج السليط الذى طالما تحملوا اهاناته وقبلوا على مضض استمتاعه دونهم بالحظوة الاولى عند الدوق العابث ٠٠

٠٠ وفجأة يقطع الموسيقى المرحة ضجيج شجار فى الخارج ، ينتهى بأن يقتحم كهل المكان والشرر يتطاير من عينيه ، بعد أن تغلب على الذين حاولوا منعه من الدخول ! **انه الكونت مونتيرون،**

الذى اختطف الدوق ابنته ولوث شرفها ، جاء يفضح حاكم مانتوا أمام جميع الهيئات التى يحتفى بها الليلة فى قصره ، ويطالب برد ابنته اليه !

ويصدر الدوق لفوره أمرا بالقبض على الكونت ، بينما يشبعه الاحدب سخرية واستهزاء، فيحتدم غيظ الشيخ الوقور ويستمطر على ريجوليتو أفظع اللعنات ..

ولدهشة الحاضرين ، يتراجع المهرج مذعورا أمام سيل اللعنات المنهمر من فم الاب الغاضب لعرض ابنته .. وللمرة الاولى منذ بداية السهرة يكف ريجوليتو عن سلق ضحاياه بلسانه الحاد ، بل انه ليبدو فريسة للرعب القاتل والتطير من تحقق لعنات غريمه !

ويقتاد الحراس « مونتيرون » الى الخارج ، بينما تعود الموسيقى المرحة سيرتها الاولى ، ويلتفت المدعوون حول الدوق من جديد ..

- ٢ -

◆ **فاذا** كانت الليلة التالية رأينا ريجوليتو يمضى مهموما الى الدار التى يخفى فيها حسناءه سرا ، وتقع الدار وسط فناء فسيح به شجرة عالية ومقعد رخامى ، ويفضى من جانب الى الشارع العام ومن الجانب الآخر الى الواجهة الخلفية لقصر الكونت سيبرانو ..

وفيما هو يعبر الفناء فى سكون الليل مشغول الفكر باللعنة التى صبها على رأسه الشيخ مونتيرون ، يلتقى بمجرم محترف يدعى « سبارافوسيل » ، فيعرض هذا عليه خدماته ، مبديا استعداده لان يخلصه من أى شخص من خصومه ، لقاء أجر معقول ! .. ويشرح له خطته فاذا هى تتلخص فى استدراج ضحيته الى حانة منعزلة ، تنتظرهما فيها شقيقته الغجرية

الحسناء « مادلينا » ٠٠ وهنا يجهز الاثنان على العـــدو غير المرغوب فيه !

لكن ريجوليتو يعتذر لصاحبه بعدم احتياجه « لخدماته » فى الوقت الحاضر ، واعدا باللجوء اليـــه اذا اقتضى الامر ٠٠ وهكذا يمضى سبارافوسيل فى سبيله ، تاركا الاحدب ينـاجى نفسه : « **ما أشبهنا أحدنا بالآخر : أنا سلاحى اللسان ، وهو سلاحه الخنجر !٠٠ مهمتى أنا أن أضحك الناس ، ومهمته هـو أن يبكيهم !** »

ويبلغ باب بيته ، فيفتحه ويدخل ٠٠ ولا يكاد يعبر العتبة حتى ترتمى الحسناء بين ذراعيه ٠٠ واذا هى ابنته لا عشيقته ! وقد حرص على اخفائها عن أقرب الناس اليه خوفا من أن يجلب عليها حسنها الباهر كارثة تودى بها ٠٠ ومن ثم استأجر لها هذا المسكن المنعزل وتركها فى رعاية مربيتها العجوز «جيوفانا»، قانعا بأن يقصد اليها سرا كل مساء ، بعد هبوط الظـلام ، فينعم برفقتها فترة من الوقت ثم يعود الى قصر سيده ٠٠

لكنه الليلة قلق على ابنته أكثر من المعتاد ، فان اللعنة لا تفتأ تلح على خياله ٠٠ ومن هنا فهو يحذر « جيلدا » من الخروج من البيت الا للضرورة القصوى ٠٠ فتطمئنه بقولها انها لا تبرح الدار الا لكى تذهب الى الكنيسة كل صباح ٠٠ **وتعاوده ذكرى أمها ـ زوجته التى ماتت وخلفتها فى رعايته وهى ما تزال طفلة ـ فيناشد المربية العجوز أن تتخذ كل أسباب الحيطـــة فى حراستها « للزهرة اليانعة » !**

لكنه يسمع صدى خطوات خفيفة على أرض الطريق الساكن، فيخرج ليتبين مصدرها ٠٠ ولا يكاد يفتح الباب ويتقدم نحو الشارع حتى يسارع الغريب الى الاختفاء وراء الباب الذى فتح ، ثم ينتهز أول فرصة فيقذف بكيس من النقود الى المربيـــة « جيوفانا » ، ويختبىء فى ظل الشجرة العالية ٠٠ حتى يعود

الاحدب الى داخل المسكن كى يودع ابنتـه ويوصى جيـوفانا بالمغالاة فى حراستها ثم ينصرف ..

ولا يكاد يفعل حتى تندم «جيلدا» لان خوفها من غضب أبيها قد عاق لسانها عن الاعتراف له بأن شابا رائعا اعتاد أن يتبعها ببصره عند خروجها من الكنيسة ، وأن صورة هذا الشاب قد رسخت فى قلبها ، بحيث تتوق الى البـوح له بحبها .. !

وهنا يظهر الشاب من خلف الشجرة فيشير الى المربيـة كى تنسحب ، ويهرع هو الى جيلدا فيرتمى عند قدميها ويهتف بها ضارعا : « أحبك » !

ويبدو وجه الشاب فى الضوء فاذا هو « الدوق » ، متنكرا فى هيئة طالب ! لقد اهتدى أخيرا الى مقر معشوقته الجديدة ، فاعتزم أن يفاجئها بزيارته فى تلك الليلة ..

ورغم أن الفتاة تفاجأ بظهوره ، فانها لا تستطيع اخفـاء فرحتها بمجيئه .. بل تصغى اليه فى طرب وهو يغنى لها : « الحب هو الشمس التى تلهب الاحساس ! » .. ثم تستجيب لعاطفته الحارة فيتبادلان العناق والوعود ..

ولا يطول اللقاء اذ يعجل بانهائه صوت خطوات أخرى فى الخارج ، لكن الحبيبين يتبادلان همسة حارة قبل الفراق : « وداعا ، يا أملى ، يا حياتى ، وداعا »

وحين يمضى تستعيد الفتاة لنفسها اسمه ــ المنتحـل ــ الذى باح لها به « والتر مالدى » .. ثم تضىء شمعة وتصعـد السلم الى غرفتها وهى تناجى حبيبها بأغنية : « أيها الاسـم الغالى ، قلبى يعتز بك .. »

ولكن قبل أن تدلف جيلدا الى داخل البيت بعد توديـع حبيبها، يصل الى الفناء الخارجى ــ متسللين فى الظلام ــ النبلاء « سيبرانو » و « بورصا » و « مارولو » ، المتآمرون على الانتقام من ريجوليتو باختطاف « عشيقته » المزعومة .. فيلمحـون

جيلدا ، ويبهرهم حسنها وشبابها ٠ ولكن قبل أن يتسع لهم الوقت للتعليق على جمال الفريسة **يفاجأون بظهور ريجوليتو ٠٠ الذى عاوده القلق على ابنته بتأثير اللعنة المشئومة ، فعاد كى يطمئن عليها مرة ثانية !** ٠٠ وتسعف أحد المتآمرين البديهة فيزعم للاحدب انهم قد أتوا من طرف الدوق لاختطاف زوجة الكونت سيبرانو ـ الذى كان قد اختبأ فورا بعد أن سلم مفاتيح بيته لزميله مارولو ! ـ فيناول هذا بدوره المفاتيح لريجوليتو ويدعوه ـ امعانا فى السبك ـ الى الانضمام اليهم فى مغامرتهم الطريفة !

وتنطلى على ريجوليتو الخدعة ، ويرحب بالفرصة التى تتيح له أن يساهم فى تلويث شرف رجل من ألد خصومه ٠٠ فيشترط عليه مارولو أن يلبس لثاما مثلهم ٠ وفيما هو يثبت اللثام على وجهه ، يعزه النبيل الماكر بمنديل يحجب عينى الاحدب ويصم أذنيه ! ثم يكلفه بأن يحفظ توازن السلم الخشبية التى سوف يصعدون عليها ٠٠ **ولكن بدلا من أن يسند النبلاء السلم الى حائط بيت سيبرانو يسندونها الى جدار بيته هو ٠٠ ثم يتسلقونها « بمعونته » الى نافذة غرفة ابنته ، فيدخلون ويوثقون (جيلدا) داخل معطف سميك ثم يفرون بها عن طريق باب الفناء** ٠٠ وأثناء فرارهم يسقط من الفتاة وشاحها فلا ينتبهون اليه ٠٠ ويبقى الاحدب وحده فى الظلام الساكن ممسكا بالسلم ، فى انتظار هبوطهم !

وحين يستبطئهم آخر الامر ، يعمد الى تمزيق المنديل ونزع اللثام عن وجهه وأذنيه ٠٠ واذا هو يرى باب داره مفتوحا ، ويلمح وشاح ابنته جيلدا على الارض ! ٠٠ فيندفع كالمجنون الى داخل البيت ٠٠ الى غرفتها ٠٠ ثم يعود وهو يرزح تحت وطأة الكارثة ، صائحا فى لوعة : « انها لعنة مونتيرون ! »

وينطلق يعدو الى الشارع ٠٠ صوب قصر الدوق !

- ٣ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثالث فنحن فى قصر الدوق ، وقد جلس رب القصر ساهما مكتئبا ينعى فرار الطير من قفصه ، فلقد علم بنبأ اختطاف محبوبته جيلدا ٠٠ وفيما هو ينوح على فقدها مناجيا طيفها : « أيتها العذراء الجميلة ، ان دموعى تفيض ٠٠ » تجيبه أصوات النبلاء ، الذين دخلوا فى تلك اللحظة ، مبشرة بأنهم قد اختطفوا عشيقة ريجوليتو ٠٠ ! **لكن الدوق حين يراها يتبين فيها على الفور مالكة فؤاده ، فيستقبلها فرحا مرحبا ويصطحبها الى غرفته كى يطيب خاطرها ٠٠ بطريقته الخاصة !**

وبعد برهة يصل ريجوليتو جزعا ملتاعا ، أشد ما يكون شوقا الى تقصى أنباء ابنته ، لكنه حين يرى غرماءه الالداء يتمالك روعه مستعينا على تحقيق غرضه بالكياسة والتظاهر بعدم الانزعاج ! ٠٠ واذ يعلم النبلاء أن التى اختطفوها انما هى ابنته وليست عشيقته ، يضحكون ملء أشداقهم ، متمادين فى الشماتة ٠٠ أما هو فيمزح ، بينما قلبه يتمزق أسى حتى ليكاد ينفطر ٠ وأخيرا يستدير الى الجمع فيوسعهم تقريعا ٠٠ وأثناء ذلك يفتح باب احدى الغرف وتبرز منه « جيلدا » ، وقصتها التعسة مسطورة على وجهها الذى يرتسم عليه اليأس بأجلى صوره ! ٠٠ فتندفع الى أبيها وترتمى بين ذراعيه منتحبة ، فلا يملك غير أن يأمر النبلاء غاضبا بأن يغربوا عن وجهه ٠٠ ورغم استيائهم من قحته فانهم يطيعونه صاغرين

وينفرد الاب وابنته ، فتروى له قصتها : قصة الشاب الرائع الذى كان يطاردها بعينيه عند خروجها من الكنيسة ٠٠ وتصف له لقاءهما الليلى ، وكيف زعم لها أنه طالب فقير ٠٠ ثم اختطافها من غرفتها ، وحملها الى قصر الدوق ، واكتشافها أنه حبيبها بعينه ٠٠ وادخالها الى غرفته الخاصة ، التى خرجت منها الآن !

ويحاول الاب المفجوع أن يطيب خاطرها ويواسيها : « ابكي يا طفلتي ٠٠ عسى أن تغسل الدموع أشجانك » ٠٠ وفى تلك اللحظة يذكر الاحدب لعنة مونتيرون ، الذى سيق الى السجن تمهيدا لاعدامه ، جزاء فضحه للدوق ٠٠ فلا تطوف هذه الذكرى بخاطر ريجوليتو حتى يغلى دمه فى عروقه فيقسم أن ينتقم من مولاه الذى ثلم شرفه !

لكن سحر تأثير الدوق على النساء يبلغ أقصاه فى نفس جيلدا ، فاذا هى تناشد أباها أن يغفر خطيئة الرجل « كما نغفر نحن خطايا المذنبين الينا ! »

- ٤ -

◆ **فاذا** كان الفصل الاخير فنحن فى بقعة منعزلة على ضفة نهر « منشيو » ، حيث يقوم منزل عتيق من طابقين ، يستخدم كحانة للنزلاء العابرين

٠٠ الوقت ليل ، ومن بعيد ترى أنوار مدينة مانتوا

ونعلم أن المنزل المذكور هو منزل « سبارافوسيل » وأخته النورية الحسناء « مادلينا » ، التى تستدرج الضحايا اليه كى يتولى أخوها سرقة مالهم ـ أو قتلهم ـ حسب الاجر والمهمة المتفق عليها ! ٠٠ يرى فى الداخل سبارافوسيل ينظف حزام غدارته ويشحذ سيفه ٠٠ وفى الخارج تقف جيلدا وأبوها الاحدب ريجوليتو ٠ **ان الفتاة ما تزال عاجزة عن أن تبعد طيف الدوق عن خاطرها ، لذلك جاء بها أبوها الى هذا المكان كى ترى بنفسها دليل خيانة حبيبها لها ، وبعد أن اتفق مع سبارافوسيل على تكليف أخته باستدراج الدوق الى الحانة والاجهاز عليه !**

٠٠ وبعد حين يقبل الدوق من بعيد متنكرا فى زى جندى، ثم يدخل الحانة فيطلب نبيذا وغرفة يقضى فيها ليلته ٠٠ ثم يصب لنفسه النبيذ ويغنى أغنية غزل فى النساء، هى الانشودة المشهورة « دونا ايموبيلى » التى مطلعها «التقلب شيمة المرأة»! ٠٠



وبناء على اشارة من سبارافوسيل تنبرى مادلينا لمجالسة الدوق ، فيغازلها ٠٠ وتتمنع ٠٠ ويطاردها ٠٠

وترى جيلدا من الخارج كل مايجرى ، فتهتف يائسة : « ٠٠ ومع ذلك يحدثنى عن حبه لى ! » ٠٠ ويغمغم ريجوليتو متوعدا غريمه بالانتقام العاجل، الذى أوشك أن يؤتى ثماره ٠٠ ففى هذه اللحظة يخرج اليه سبارافوسيل كى يقبض مقدما نصف أجر قتله للدوق ، مشترطا أن يقبض الباقى حين يسلم للاحدب جثة غريمه فى جوال ، كى يتولى شفاء غليله منها فيلقيها بيديه فى النهر ٠٠ !

وحين يعود القاتل المحترف الى داخل الحانة يقنع الاحدب بما شهدته ابنته من أدلة نذالة حبيبها ، فيأمرها بالانصراف الى بيتها كى تتنكر فى ثياب رجل وترحل الى فيرونا طلبا للامان واحتياطا للاحداث القادمة ٠٠ على أن يلحق هو بها هناك ٠٠ثم ينصرف بدوره من المكان

وتتجمع فى الجو بوادر عاصفة عاتية ، فيومض البرق ويقصف الرعد ، ويزأر الهواء ٠٠ فيصعد الدوق الى غرفته بعد أن يهمس لمادلينا كى تلحق به ٠٠ وهناك يلقى قبعته وسيفه ويرتمى على الفراش وهو يترنم بأنغام أغنية « دونا ايموبيلى » ٠٠ وسرعان ما يغلبه النعاس !

وفى الطابق الاسفل يجهز سبارافوسيل على بقايا النبيذ الذى تركه الدوق فى الزجاجة ، بينما تستحلفه أخته مادلينا أن يبقى على حياة الدوق الذى أعجبها !٠٠ وهنا تبلغ العاصفة

ذروتها فيشق البرق كبد السماء ويدوى هزيم الرعد فى الفضاء مختلطا بزمجرة الريح وسيول المطر ٠٠ وخلال ثورة الطبيعة التى يزيد ظلام الليل من رهبتها ، تأتى جيلدا كأنما تجتذبها قوة مغناطيسية الى حيث يبيت حبيبها ٠٠ ومن خلال احدى كوى الجدار تسمع مادلينا تتوسل الى أخيها أن يبقى على حياة الدوق ويقتل الاحدب بدلا منه ، عندما يأتى الاخير ببقية المبلغ المتفق عليه ٠٠ !

ولكن حتى القتلة يتمسكون بأهداب الشرف أحيانا ، وهكذا يرفض سبارافوسيل أن يخون عميلا له !

وتمعن النورية الحسناء فى توسلاتها الحارة ، حتى يقبل شقيقها أن يمنح الشاب فرصة أخيرة للبقاء على قيد الحياة ، فيعاهدها على انه اذا طرق باب الحانة طارق قبل منتصف الليل ، فسوف يقتله ويضعه فى الجوال بدلا من الدوق ٠٠ !

وتدق الساعه معلنة انتصاف الليل ٠٠ فيلمع فى ذهن جيلدا الواقفة فى الخارج ـ مرتدية ثياب رجل ـ خاطر جرىء تنقذ به حياة حبيبها الدوق بأى ثمن !



٠٠ فتطرق باب الحانة ٠ وتنقضى لحظات حافلة بالترقب ، والاستعداد ٠٠ ثم تفتح مادلينا الباب ٠٠ وتدخل جيلدا ٠٠ ويبين ظلها فى الظلام لحظة ثم تدوى صرخة حادة مفجعة ٠٠ ويعود السكون فيشمل المكان !

وتهدأ العاصفة ، وتنقطع الامطار ٠٠ ويعود ريجوليتو ! **« أخيرا حانت ساعة انتقامى » ٠٠ ويطرق الباب ٠٠ فيحضر له**

سبارافوسيل الجوال الذى فيه الجثة ، ويستلم منه بقية الاجر ، ثم يصعد الى غرفته ٠

أما ريجوليتو فيحمل غنيمته ظافرا ويهم بالانصراف ، كى يلقيها فى النهر قبل أن تلوح بوادر الفجر ٠٠ لكنه لا يكاد يبلغ ضفة النهر المواجهة للحانة حتى يصافح سمعه صوت مألوف يغنى فى سكون الليل أغنية « دونا ايموبيلى » ، من الطابق الثانى للحانة ! ٠٠ ويتبين الاحدب فى صاحب الصوت غريمه الدوق ، فيتملكه الغضب ويشق الجوال ، ليتفحص وجه القتيل **٠٠ واذا هو يرى محيا وحيدته الجميل ـ ولم تكن قد لفظت أنفاسها الاخيرة بعد ـ فتهمس له بصوت خائر : « لقد أحببته ٠٠ فافتديته بروحى ! »**

ويصرخ الاب المفجوع : « كلا ٠٠ لا تموتى ! »

لكن رأسها يسقط على صدرها ، بلا حراك ٠٠ فيذكر ريجوليتو لعنة « مونتيرون » ، ويدرك فجأة أنها قد حاقت به لانه سخر يوما من آلام أب مفجوع !٠٠ واذ ذاك يطلق الاحدب صرخة يأس ولوعة ، ويخر فاقد الوعى ٠٠ الى جانب جثة ابنته!

كتب الأولون



كنوز الكتب القديمة

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية من كتابى ، من روائع الكتب القديمة ، هذه الكتب على التوالى :

((ديكاميرون)) : بوكاشيو
((دون كيشوت)) : سرفانتس
((الالياذة)) : هوميروس
((اميل)) : جان جاك روسو
((حى بن يقظان)) : ابن طفيل
((روبنسن كروزو)): دانييل ديفو
((غرام الاخوين)) : (كاتب فرعونى مجهول)
((يوتوبيا)) : توماس مور
((الجمهورية)) : افلاطون
((الكوميديا الآلهية)) : دانتى
((الاوديسة)) : هوميروس
((العالم كما يسير)) : فولتير
((غرام مشبوب)) : لين يوتانج

واليوم آقدم لك فيما يلى هذه الدراسة المقارنة لرباعيات عمر الخيام كما ترجمها شعرا ونثرا جميع من تصدوا لهذه المهمة من أدباء العروبة، القدماء والمحدثين ..

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى فى هذا الباب باذن الله الكتب العالمية التالية:

الامير : مكيافيللى
العقد الاجتماعى : جان جاك روسو
البخلاء : الجاحظ .. الخ

تشارلس ديكنز

قصة مدينتين



عدو الشعب !

المركيز «شارل سان افريموند» فى طريقه الى محكمة الثورة ، تمهيدا لتقديمه طعاما سائغا للمقصلة !

اقرأ القصة كاملة فى العدد الخاص الذى يصدره « كتابى » ـ لاول مرة ـ يوم ١٠ أكتوبر

انه كتاب الساعة ..

بين آلاف الكتب والقصص التى صورت عصر الثورة الفرنسية الكبرى وأحداثها الرهيبة ، تبقى « قصة مدينتين » نموذجا وحدها لاروع ما خطه قلم كاتب انسانى من آيات الفن الروائى ، والحبكة القصصية الجبارة ـ التى تبلغ حد الاعجاز ! ـ ثم التصوير البارع لاعمق خلجات النفس البشرية .. النفس التى اذا أحبت ـ صادق الحب وخالصه ـ وهبت وافتدت وأعطت أضعاف ما أخذت !..

والمدينتان اللتان عناهما «ديكنز» بعنوان روايته هما باريس ولندن ، اللتان تجرى فيهما حوادث القصة ، وتتأرجح بينهما مصائر أبطالها فى تسلسل شائق تلهث منه أنفاس قارئها فيخال نفسه يعيش مع هؤلاء الابطال فى ذلك الاطار الدموى المروع من الحديد والنار : يواجه مايواجهون من أخطار واحتمالات ، ويعانى مايعانون من كروب ومحن ، ويعشق من يعشقون من نفوس جديرة بأن تعشق .. وبالاختصار ، يشارك أبطال القصة عواطفهم المتأججة المتضاربة ، النبيلة والوضيعة .. العفيفة والعنيفة .. عواطف الحب والبغضاء ، والخيانة والوفاء ، والانانية والفداء جميعا !

ما هى « رباعيات » الخيام ؟٠٠ وكم عددها ؟٠٠ وما أسباب شهرتها ؟ وعلة تسميتها بهذا الاسم ؟

ومن هو صاحبها « عمر الخيام » ؟٠٠ الى أى بلد ينتمى ؟٠٠ وفى أى عصر عاش ؟٠٠ وفى أى ميدان برز وصار من الخالدين: أفى الشعر ٠٠ أو الفلسفة ٠٠ أو الفلك ؟ أم فيها جميعا !؟

وهل كان فى حياته ماجنا مستهترا ، أم تقيا عفيفا ؟٠٠ فيلسوفا من فلاسفة المادة ، أم صوفيا زاهدا من فلاسفة الروح؟ ٠٠ متفائلا فى نزعته ، أم متشائما ؟

لا كرامة لنبى فى قومه !

◆ **انك** اذا دخلت مكتبة المتحف البريطانى بلندن ، طالعك من فوق رفوفها ١٥٣ كتابا عن عمر الخيـــام ، ورباعياته !٠٠ بل انك اذا ولجت أية مكتبة من مكتبات القاهرة وذكرت اسم عمر الخيام ، أو رباعيات الخيام ، لأذهلك أن تجد أمامك عشرات الكتب والطبعات ، بجميع اللغات ، للخيام ورباعياته !

بجميع اللغات ماعدا واحدة : هي العربيـــة ٠٠ فانك لو شاء لك حظك العاثر أن تسأل ـ في استحياء ـ عن طبعة « عربية » واحدة لهذا الكنز العالمى من كنوز الفكر ، الذى بزغ نوره من قلب الشرق ، لأجابك البائع فى تسع وتسعين مكتبة من مائة : بالنفي !٠٠ وقد يسعدك الحظ في المكتبة « المـــائة » فتعثر بنسخة من طبعـة « البستاني » العربية النـــادرة ، أو طبعة « رامى » الاشد ندرة !

ذلك ـ ويا للاسف ـ مبلغ تقدير قراء الغرب لكنز الشرق الادبي الخالد ، ومبلغ جحود قراء العربية له ٠٠ واهمالهم اياه !٠٠ بل انك لو رأيت الى أى حد افتنت دور النشر العالمية فى « تزويق » طبعاتهـــا من رباعيات الخيـــام ، وتلوينهـــا ، وتزيينهـــا بعشرات اللوحات الخلابة التى أبدعتها ريشـــة أعظم الرسامين ٠٠ بل لو رأيت الى أى حـــد أنفقت تلك الدور المال والجهـــد فى « تجليد » طبعاتها هذه بفاخر القماش أو الجلد ، وزخرفة أحرف كل كلمة من الرباعيات نفسها ـ كما لو كانت أبياتها آيات مقدسة ! ـ لشعرت معى بفداحة اهمال الشرق لكنوزه الادبية ، ومدي تفريطه في نشرها واقتنائها ٠٠



رباعيات عمر الخيام

الانجليزى الملهم « ادوارد فيتزجيرالد » ، والتى ماتزال المرجع الاول – شبه الرسمى ! – لرباعيات الخيام فى العالم الناطق بالانجليزية ..

وقد يدهشك أن تعلم أن اعجاب الغربيين برباعيات الخيام ، بلغ حدا دفع المتحمسين له الى تأسيس ناد لهم باسم « نادى الخيام » فى لندن سنة ١٨٩٢ ، وقد توجه النادى بعد تأسيسه الى شاه ايران برجاء ترميم قبر الخيام فى (نيسابور) وتعهد الازهار التى تحف به ..!

أما العرب .. فقد أنكروا الخيام طيلة سبعمائة عام أو يزيد – كما أنكروا قبله أبا العلاء ! – وأهالوا على قبريهما تراب الغضب ، واللعنة ، والنسيان .. حتى ذكرهم بهما أدباء الغرب الذين أبرزوا من زوايا الاهمال تراثهما المجيد !.. وعندئذ ، وعندئذ فقط ، تفتحت عيوننا فعرفنا قدر أبى العلاء ، وان لم نعرف بعد للخيام الا بعض قدره ! .. ولو لم ترزقنا الاقدار بأدباء أعلام ، اتسعت همتهم وصبرهم للتنقيب فى بطون المخطوطات الفارسية والمراجع الاجنبية ، وبعث رباعيات الخيام من مرقدها الطويل بلغة الضاد .. لبقى قارىء العربية الى اليوم أجهل بالخيام من أهل الدنمرك والبرازيل !

فسلام وتحية عرفان بالجميل : لوديع البستانى ، وأحمد رامى ، ومحمد السباعى ، وجميل صدقى الزهاوى ، ومحمد الهاشمى ، وأحمد حامد الصراف ، وابن وكيع – من أدباء : لبنان ، ومصر ، والعراق ، الذين تصدوا لترجمة رباعيات الخيام ، نثرا وشعرا ..

عصر الخيام

◆ **ولد** « غياث الدين عمر أبوالفتح بن ابراهيم الخيام » فى (نيسابور) عاصمة خراسان حوالى سنة ١٠٤٠ (٤٣٣ هجرية) ، فى عهد السلطان « أرطغرول » أول سلاطين التتار الاتراك ، ومؤسس سلالة (السلاجقة) التى ألقت بأوربا فيما بعد فى أتون الحروب الصليبية . وكان أرطغرول قد غزا نيسابور سنة ١٠٣٨ .. ثم كسر شوكة أنو شروان ملك الفرس (سنة ١٠٤١) .. ودخل بغداد ظافرا سنة ١٠٥٥ بعد أن أمنه الخليفة على حياته ، فأجلسه هذا الى جانبه وأغدق عليه العطايا ثم زوجه من ابنته ، وبذلك استتب له « ملك المشرق والمغرب » !

فى هذا العصر نشأ عمر الخيام ، وكان يعيش فى (نيسابور) يومئذ رجل من أحكم أهل خراسان يدعى الامام « موفق النيسبورى » ، شاع عنه أن كل صبى يدرس عليه القرآن والحديث تباركه السماء فيبلغ أعلى مراتب الشرف والسعادة .. فكان أن التقى فى دروس الامام المذكور ثلاثة من التلاميذ



الرســـوم الفنية

صورة الغـلاف : بريشـة الرسام العالمى «**روبرتستيوارت شيريفز** »

الرسوم الاربعة المطبوعة على ورق « الكوشـيه » الملون : بريشة الرسام الامريكى «**اج٠ سوليفان** »

الرسم المجاور والرسـوم المشابهة : بريشـة الرسـام الانجليـزى « **مارجـورى أندرسون** » (والرسم الذى الى اليسار يمثل عمـر الخيام ـ الشاعر ، والفلكى ، والفيلسوف كما تخيله الرسام المذكور)

العالم كله ٠٠ الا نحن

◆ **ولكن** هل اقتصرت حماسة الغرب لهذه الرباعيات على الافتنان فى طبعها؟٠٠

أخشى أن لايصدقنى القارىء اذا قلت أن فضل « اكتشاف » رباعيـات الخيام ، والاشادة بروعتها ، وتنبيه العالم الى قيمتها الادبية وعمق فلسفتها ، انما يرجع أولا وأخيرا الى أدباء الغرب : الى « توماس هيـد » الانجليزى ٠٠ و « فون همر » النمسوى ٠٠ و « نيكولا » الفرنسى ٠٠ و « الدكتور روزن » الالمانى ٠٠ و « زوكفسكى » الروسى ٠٠ و « كريستنسن » الدنمركى ٠٠ وأخيرا ـ بل فوق كل هؤلاء ـ ترجع الشهرة العالمية التى أسبغت على رباعيات الخيام الى الترجمة الشعرية الفذة التى أتحف الانسانية بها فى سنة ١٨٥٩ الشـاعر



هتف الطيف بالندامى النيام

أيها الغافلون هبوا قياما وارشفوها وودعوا الاياما

قبل أن تجرعوا كؤوس المنايا وتعافوا ، والخمر عزت شرابا

عمر الخيام (نظم وديع البستاني)



ومقامى غصن ظليل بقفر   ورغيفان مع زجاجة خمر

كل زادى ، والاهل ، ديوان شعر

وحبيب يهواه قلبى الذى   بشجى يذيبنى يتغنى

هكذا أسكن القفار نعيما   وأرى هذه القصور خرابا

عمر الخيام (نظم وديع البستاني)

الحكيم الزاهد !

◆ **تلك** قصة الزميل الاول لنظام الملك ، أما زميله الثانى «عمر الخيام» فانه لم يجئه طامعا فى منصب أو جاه ، وانما اكتفى من خيراته بهذا المطلب المتواضع : «ان اعظم منة تملك أن تنفحنى بها ، هى أن تفرد لى ركنا منزويا فى ظل جاهك وثرائك ، أستطيع منه أن أنشر العلم والعرفان ، وأدعو لك بالعمر الطويل والخير الوفير» .. فلما رآه الوزير مخلصا فى زهده واعراضه عن المناصب ، أجرى عليه من خزينة (نيسابور) راتبا شهريا قدره مائة مثقال من الذهب !

ويضيف الوزير نظام الملك فى «وصيته» التى روى فيها هذه القصة : **«وهكذا عاش عمر الخيام ومات فى نيسابور ، لا هم له غير اكتساب المعرفة من كل لون ، اينما وجد اليها سبيلا ، ولاسيما فى علوم الفلك التى بلغ فيها شأوا بعيدا .. كما درس الفلسفة ، والطب ، والمنطق ، والفقه ، واللغة ، والتاريخ ، والطبيعة ، والعلوم الالهية» ـ وكانت فى عاصمة خراسان يومئذ ست جامعات تدرس فيها هذه المواد جميعا ! كماكان فيها مرصدبناه نظامالملك ـ** فلما قتل السلطان «ألب ارسلان» وخلفه ابنه ملك شاه (الذى ازدهرت فى عهده حضارة الفرس وامتدت مملكتهم من حدود الصين الى شاطىء البحر الابيض المتوسط !) دعا السلطان الجديد « عمر الخيام » بين من دعاهم من العلماء كى يصلحوا التقويم الذى تسير عليه البلاد ، فوضعوا تقويما يقرب فى دقته من التقويم الجريجورى الذى يسير عليه العالم الغربى اليوم .

المتنبى

◆ **ومما** يؤثر عن نبوغ عمر فى التنبؤات الفلكية ان السلطان ملك شاه طلب اليه ذات يوم من شتاء عام ١١١٥ أن يختار له خمسة أيام لا يهطل فيها مطر ولا ثلج ، كى يخرج خلالها فى رحلة للصيد .. فأجابه الخيام الى ما طلب ، وكان المطر والثلج والعواصف على أشدها فى الفترة السابقة للموعد الذى حدده ، لكنها لم تلبث أن انقطعت تماما فى تلك الايام الخمسة !

وروى واحد من تلاميذه ـ هو النظامى السمرقندى ـ أنه سمعه ذات يوم يتنبأ بانه سوف يدفن فى قبر «تنثر عليه رياح الشمال الازهار والنوار كل

الشبان ، هم : « عمر الخيام » ، و «حسن بن الصباح » ، « ونظام الملك » ، فارتبط ثلاثتهم برباط من الصداقة الخالصة .. وذات يوم قال المدعو حسن ابن الصباح لزميليه : « المعروف ان تلاميذ الامام « موفق » جميعا يكتب لهم المستقبل المرموق .. ومع ذلك فلنفرض جدلا ان واحدا منا فقط بلغ ذروة النجاح المنشود .. فماذا يكون عهدنا وميثاقنا ؟ »

فلما استفسر زميلاه منه عما يقصد اقترح عليهما بأن يقسموا ثلاثتهم بأن من تنعم عليه الدنيا بأطايبها منهم يقتسم نجاحه مع الآخرين على قدم المساواة ، بحيث لايحتفظ لنفسه دونهم بأى امتياز !

وتعاهد التلاميذ الثلاثة على ذلك .. ومرت أعوام ، جال فيها أحدهم - المدعو نظام الملك - فى أنحاء البلاد ، يدرس ويبحث ويثقف عقله .. فلما عاد ، اختاره السلطان «وزيرا» .. وعندئذ جاءه مقترح الميثاق يطالبه بتنفيذ ما اتفقوا عليه . وكان «نظام الملك» عند وعده ، فسأله أن يطلب ما يشاء .. فطلب ابن الصباح منصبا حكوميا ! فمنحه السلطان ما طلب ، بعد توسط الوزير .. وكان السلطان «ارطفرول» قد مات وخلفه ابن عمه « ألب أرسلان »

جرائم الحشاشين

◆ **لكن** ابن الصباح كان خبيث الطوية ، لم يعجبه أن يرتقى سلم المناصب ارتقاء تدريجيا «بطيئا» ! فبدأ يحيك المؤامرات لولى نعمته «نظام الملك» ويدس له لدى السلطان ، لكن افتراءاته انكشفت فاضطر الى الهرب الى مصر .. ثم عاد منها بعد زمن الى فارس متخفيا ، واتخذ قلعة «وكر العقاب» الجبلية مخبأ له يدبر منه الفتن والدسائس ، ولاسيما بعد أن رأس طائفة «الاسماعيلية» - أو الحشاشين - فجعل منهم أداة للارهاب ونشر الذعر فى أرجاء العالم الاسلامى (حتى لقد ذاعت شروره وجرائمه فى أوساط الصليبيين فأطلقوا عليه «سفاح الجبال الرهيب») - ونتيجة لشهرة اولئك الحشاشين بالشر والاجرام أدخل الفرنسيون على لغتهم كلمة ASSASIN ومعناها «قاتل» ، وهى محرفة عن «حشاشين» !.. وكان من بين ضحايا خنجر ذلك السفاح الرهيب رب نعمته وزميل صباه القديم : الوزير «نظام الملك» !

ربيع » .. فلما زار الراوى قبر استاذه فى احدى زياراته لنيسابور ، بعد وفاته بأعوام ، أدهشه ان رأى الازهار والبراعم المتساقطة من أشجار الفاكهة القريبة تكاد تغطى القبر وتحجبه عن الانظار ! ـ مثله مثل قبر «ارشميدس» الذى وجده «شيشيرون» فى (سيراكيوز) ضائعا تحت الحشائش والاعشاب ..

وفضلا عن براعة الخيام فى الفلك ، الذى وضع فيه عدة مؤلفات ، فانه وضع ايضا كتابا ممتازا فى الجبر (ترجمه الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر وأعادوا نشره مرارا) .. على أنه لم يخلد فى أثر من آثاره العلمية قدر خلوده فى أثره الادبى الفلسفى الفذ : «الرباعيات» ـ التى سميت هكذا لان كلا منها يتألف من أربعة أبيات ـ والتى طمست كل ما تقدم وما تأخر من مؤلفاته !

تسجل بعد ثلاثة قرون ونصف !

◆ **ولم** يكتب الخيام رباعياته أو يجمعها فى مؤلف واحد كما قد يتبادر الى الاذهان ، وانما كان ينظمها فى خلوته ثم ينشدها لاصحابه فى المجالس ، فيحفظونها ويروونها .. وقد يكون أحد النساخ كتبها ولكن مخطوطاتها احترقت فيما احترق من معالم نيسابور حين تعرضت لغزو المغول والتتار . **ولكن أغلب الظن ان النساخ احجموا عن كتابتها تمردا منهم على ما ورد فيها من آراء جريئة .. وهكذا كان أقدم مخطوط لها عثر عليه الباحثون هو الذى كتبه ناسخ من أهل شيراز سنة ١٤٧٢ (اى بعد وفاة الخيام بنحو ثلاثمائة وخمسين سنة !)** ، وقد وجده البروفيسور كويل فى منتصف القرن الماضى فى احدى مكتبات اكسفورد فدرسه وكتب بحثا عنه فى مجلة (كلكتا) سنة ١٨٥٨ ، ثم عرض نسخته على صديقه الشاعر فيتزجيرالد فترجمها نظما الى الانجليزية وباع النسخة منها ببنس واحد (نحو مليمين ونصف) ، ولكن برغم ثمنها الزهيد لم تلق رواجا فى أول الامر حتى تنبه النقاد الى قيمتها فاشادوا بها وروجوا لها .. حتى بلغ ثمن نفس النسخة من تلك الطبعة الاولى فيما بعد ستين جنيها انجليزيا !!

الرباعيات الحقيقية .. والمدسوسة !

◆ **اذن** فقد انقضت ثلاثمائة وخمسون عاما بين وفاة الخيام وبين تسجيل رباعياته فى أقدم نسخة خطية وجدت منها .. وعليه فقد رجح الباحثون

ان يد التعديل والتحوير ـ سواء بدافع الخطأ والنسيان أو بدافع الاهواء الشخصية للناسخين ـ قد لعبت دورا كبيرا فيها بحيث يصعب الجزم بنسبتها جميعها الى الخيام ، سيما وقد اختلف عددها ـ بين مخطوط وآخر ـ من ١٥٨ رباعية فى ذلك المخطوط القديم ، الى ٧٦ رباعية فقط فى مخطوط آخر ، الى ٢٠٦ رباعيات فى مخطوط ثالث ، الى ٣٢٩ فى مخطوط رابع ، الى ٤٦٤ فى خامس ، الى ٨٠٠ رباعية فى مخطوط سادس عثر عليه فى جامعة كمبريدج ، ويحمل تاريخ سنة ١٧٧٣ .. الخ

لذلك تحير الادباء والنقاد فى فهم الخيام ، والجزم بنزعاته وآرائه ، نتيجة لحيرتهم فى «فرز» رباعياته الحقيقية من بين الرباعيات الكثيرة المنسوبة اليه ، والمدسوس بعضها عليه من جانب خصومه من الصوفيين الذين طالما سخر هو منهم ، ومن نفاقهم ، وسفه تعاليمهم ! والذين قد لا يفضل ايمانهم ايمانه أو يزيد عنه عمقا بكثير .. فلا غرابة اذن فى أن يكونوا قد دسوا عليه من الرباعيات ما يظهره فى مظهر الكافر الملحد أو الماجن المستهتر .. الى آخر هذه الاتهامات التى نسبت اليه . ومما يؤيد هذا الظن أن الكثيرين منهم قد ناصبوه العداء فى حياته جهرا ، الى حد تهديدهم اياه بالقتل .. مما دفعه الى تجنبهم والانزواء فى بيته يقفل بابه عليه ولا يستقبل من زواره احدا !

وبرغم ذلك فان شعراءهم ـ الذين لا يفوقهم منزلة فى بلاد الفرس غير «الفردوسى» صاحب الشاهنامة المشهورة ـ قد استعاروا فى أشعارهم من أفكاره ومعانيه ، وان صاغوها فى قالبهم الصوفى الاكثر ملاءمة لانفسهم وللقوم الذين يخاطبونهم : القوم الذين يسارعون الى الشك كما يسارعون الى اليقين ، ويجمعون بين حدة الحواس الجسمانية وحدة الصفات الذهنية ، فيسبحون فى خليط مائع من الاثنين ، يتأرجحون فيه بين السماء والارض .. بين هذا العالم والعالم الاخر .. على بساط من أجنحة التعبيرات الشعرية المبهمة التى تصلح لكلا الوجهتين ..

عاش ومات مؤمنا ..

◆ **تلك** كانت حال شعراء فارس المتصوفين فى ذلك العصر .. أما «الخيام» فكان اكثر منهم صراحة واستقامة ، فى القلب والذهن ، فجاهر بآرائه فى غير رياء ولا مداهنة . واذا كان قد لذ له أن يغالى فى «تمجيد» الحواس اكثر

من العقل - الذى كان يجله برغم كل شيء - فما ذلك الا لانه قد فشل فى أن ينطق العقل بالاجابة على الكثير من الاسئلة التى حيرته كما حيرت غيره من البشر من قبل ومن بعد .. أو يجد عند العقل حلا للمشكلات التى يهمه حلها .. **على أنه بالرغم مما يبدو فى رباعياته من الشك فى أمور الدنيا والدين، عاش حياته مؤمنا بوجود الله خالق الكون ، حريصا على تأدية الصلاة فى مواعيدها .. بل انه قد أدى فريضة الحج** .. ويروى عن ساعاته الاخيرة انه كان يقرأ كتابا لابن سينا «فوضعه جانبا وقام فصلى ثم أوصى ولم يأكل ولم يشرب . فلما فرغ من صلاة العشاء سجد لله وقال (اللهم انى عرفتك على مبلغ امكانى فاغفر لى فان معرفتى اياك وسيلتى اليـك) ثم أسلم نفسه الاخير» .. وكان ذلك عام ١١٢٣ ، وهو فى الثالثة والثمانين

والآن ، وقد فرغنا من الخيام فى حياته ، ننتقل الى الخيام فى رباعياته .. وسنرى فيها أنه شاعر ، شاعر بأوسع ما للكلمة من معنى ، يسجـل اهتزازات قلبه فينطلق بشعره من سجن التقاليد - على حد تعبير ايليا ابو ماضى - فيرسل معانيه كما يرسل القمر ضوءه ، أو الزهرة عبيرها ، أو البلبل اغاريده .. فهل يعنف الزهرة انسان ، أو يوبخ الشادى أحـد ، أو يلوم القمر عاقل ؟

استمع اليه يقول فى مرارة العاشق المدمن :

فى صباحى أقول تبت، وامسى وحبيبى بين اليـدين وكأسى
فارج لى توبة ودعنى بيأسى

◆ ثم يبتهل الى ربه فى ندم واستغفار :

يا الهـى اذا جنيت فاثمى يا الهى على شبابى وجسمى
وعلى نفسى الحزينة جـرمى أنا جان رجاك عفـوا وصفوا
منـك اذ غـره رضـاك فجـارا

*

أنت يا عالما بذات الصدور ومقيل العبـد الكثير العثـور
هب لهذا الندمان قبل النشور
توبة حقـة تكف يديـه عن كؤوس مشـعشعات لديه
ضيقت صدره طوال الليالى وبها قصر الليـالى الطـوالا

◆ ١) و٣) نظم وديع البستاني ٢) ترجمة الصراف ونظم محمد الهاشمي

◆ ثم يمضى فى حيرة و((عتاب)) ، كأنما ليلتمس لنفسه العذر :

رب رحماك ثم رحماك ربى بين ميل ووازع حار لبى
أى داع أعصى ، وأيا ألبى ؟

انت كونتها فكانت كميتا ثم عن حسنها البديع نهيت
فكقولى ان اقلب الكاس يا ساقى ولكن لا تهرق السلسالا

◆ وكأنى به قد أوحى لشاعرنا ((شوقى)) ببيتيه الخالدين :

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت لنا يا عباد اتقوه
وانت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لا يعشقوه

فى الخمر

◆ ثم يبدأ ((خمرياته)) المشهورة متسائلا :

أمن الحق هجر بنت الدنان والتصابى للحور والولدان ؟
ها هنا ، ها هنا أنا ، فاسقيانى

أيرد الظمآن ماء زلالا ويناجى سرابه والآلا ؟
اى بأس ان تسكرانى حالا ان نكن سوف نسكر استقبالا ؟

◆ ويمضى فى ترديد مزاعمه لتبرير فلسفته فى الشراب :

سمعت صوتا هاتفا فى السحر
نادى من الحان : غفاة البشر
هبوا املأوا كاس الطلى قبل أن
تفعم كاس العمر كف القدر

✲

سمعت فى حلمى صوتا أهاب
ما فتق النوم كمام الشباب
أفق فان النوم صنو الردى
واشرب فمثواك فراش التراب

◆ ١) و٣) البستانى ٢) شوقى ٤) و٥) احمد رامى

*

أفق خفيف الظل هـذا السحر
وهاتهـا صرفـا ونـاغ الوتـر
فمـا أطـال النـوم عمرا ولا
قصر فى الاعمـار طـول السهـر

*

أفق وهات الكاس أنعـم بهـا
واكشف خفـايا النفس من حجبهـا
وارو أوصـالى بهـا قبلما
يصـاغ دن الخمـر من تربهـا

◆ وقد نظم «البستانى» الرباعية الاولى منها هكذا :

بت فى حانتى سمير المدام وقبيل انهزام جنـد الظلام
هتف الطيف بالندامى النيام

أيهـا الغلون هبوا قيـاما وارشفوها وودعوا الايامـا
قبل ان تجرعوا كؤوس المنايا وتعافوا ، والخمر عزت شرابا

◆ ونظمها المرحوم «محمد السباعى» بدوره فى هذه الصيغة :

صاح فى النوم طيف : هاتها نملأ الاكواب من ياقوتهـا
قبلما تنضب فى كاساتهـا خمـرة الـروح وترتد الى
منبـع فى الغيب مجهول البقـاع

◆ أما «ابن وكيع» العربى فقد نظم نفس الرباعية فقال :

غرد الطـير فنبـه من نعس وأدر كأسـك فالوقت خلس
سل سيف الفجر من غمد الدجى وتعرى الصبح من ثوب الغلس

◆ ثم يمضى الخيام فى غزله فى الخمر ، فيوصى بان يغسل بعد موته بها ، ويكفن باوراق الكروم ، ويدفن فى ظلها !

ملء صدرى أوصابه والكروب يا ندامى وهى الدواء العجيب
طال عمر الندمان ، كيف أتـوب ؟

◆ ١) و٢) رامى ٣) و٦) البستانى ٤) السباعى ٥) ابن وكيع

فبأوراق كرمة كفنوني وبكرم بين الدوالى ادفنوني
واغسلوني بالخمر صرفا سلافا سلسبيلا صفوا زلالا حلالا

*

يا نديمى ـ وطال عمر النديم بعد موتى سقيا لعهدى القديم
بدموع العذراء ، بنت الكروم
وبكأس السلاف قف فوق قبرى واسكب الخمر فوق عشبى وزهرى
دمعة دمعة من الكأس قطرا وارحم الحى كان كونا وحالا

◆ ولنعد فنشدو مع « رامى » فى نظمه لخمريات الخيام :

يا ساقى الخمر أفق هاتها
ثم اسقنى سائل ياقوتها
فانها تبعث من روحها
نفسى وتحيى ميت لذاتها

*

صب من الابريق صافى الدماء
واشرب وهات الكأس ذات النقاء
فليس بين الناس من ينطوى
على الذى فى صدرها من صفاء

*

قد مزق البدر ستار الظلام
فاغنم صفا الوقت وهات المدام
واطرب فان البدر من بعدنا
يترى علينا فى طباق الرغام

*

هات اسقنيها أيهذا النديم
أخضب من الوجه اصفرار الهموم
وان أمت فاجعل غسولى الطلى
وقد نعشى من فروع الكروم

ان تقتلع من أصلها سرحتى
وتصبح الاغصان قد جفت
فصغ وعاء الخمر من طينتى
واملأه تسرى الروح فى جثتى

*

يحلو ارتشاف الخمر عند الربيع
ونشر أزهار الروابى يضوع
وتعذب الشكوى الى فاتن
على شفى الوادى الخصيب الينيع

*

هل فى مجالى الكون شىء بديع
أحلى من الكاس وزهر الربيع
عجبت للخمار هل يشترى
بماله احسن مما يبيع

*

ولى الدجى قم هات كاس الشراب
كأنما الياقوت فيها مذاب
واحرق من العود بخورا وخذ
من غصنه المعطار واصنع رباب

*

اشرب فمثواك التراب المهيل
بلا حبيب مؤنس أو خليل
وانشق عبير العيش فى فجره
فليس يزهو الورد بعد الذبول

*

الخمر توليك نعيم الخلود
ولذة الدنيا وأنس الوجود

تحرق مثل النار لكنها
تجعل نار الحزن ماء برود

*

يا مدعى الزهد أنا أكرم
منك وعقلى ثملا أحكم
تستنزف الخلق وما أستقى
الا دم الكرم ، فمن آثم ؟

◆ ولا ينسى الخيام الخمر حتى بعد الموت ، فيوصى ندماءه :

اذا سقانى الموت كأس الحمام
وضمكم بعدى مجال المدام
فأفردوا لى موضعى واشربوا
فى ذكر من أضحى رهين الرجام

*

يا نديمى بدد شجون الصدور بمدام وردية فى الخمور
ودع الهم والبلى للقبور
فاسقنى اليوم مذهب الحسرات لا تكلنى لحلم يوم آت
فغدا ربما غدوت طريد ال أمس أطوى الاجيال والاحقاب

◆ وعند هذا نودع خمريات الخيام ، وكأنى به قد تمثل بالفارابى ، صاحب القول الطريف :

بزجاجتين قطعت عمرى وعليهما عولت أمرى
فزجاجة ملئت بحبر وزجاجة ملئت بخمر
فبذى أدون حكمة وبذى أزيل هموم صدرى

فى الاستمتاع بالحياة

◆ وللخيام فى هذا الباب فلسفة تقوم على الدعوة الى اجتناب الاسى والهموم ، لان العمر سريع الزوال بحيث ينبغى الاخذ من الحياة بكل ما تستطيع ان تمنحه ، قبل أن «تسفيك كف القدر» !.. فلنستمع اليه يقول على لسان أحمد رامى :

◆ ١) و٢) و٣) رامى ٤) البستانى

هـون على النفس احتمـال الهمـوم
واغنم صفـا العيش الـذى لا يـدوم
سـنترك الدنيـا فمـا بـالنـا
نضـيع منهـا لحظـات النعيـم

*

تنـاثرت أيـام هـذا العمـر
تنـاثر الاوراق حـول الشـجر
فانعـم مـن الدنيـا بلـذاتهـا
مـن قبل أن تسفيك كـف القـدر

*

صفا لك اليوم ورق النسـيم
وجال فى الازهار دمع الغيـوم
ورجـع البلبـل ألحـانه
يقول هيا اطرب وخل الهمـوم

*

اطفىء لظى القلب ببـرد الشـراب
فانمـا الايام مثـل السحـاب
وعيشـنا طيف خيـال فنـل
حظك منـه قبل فـوت الشـباب

*

بسـتان أيامك نامى الشـجر
فكيف لا تقطف غض الثمـر
اشرب فهـذا اليـوم ان أدبـرت
به الليالى لم يعـده القـدر

*

سـارع الـى اللـذات قبل المنون
فالعمـر يطويه مـرور السـنين

ولست كالاشجار ان قلمت
فروعها عادت رطاب الغصون

*

أتسمع الديك أطال الصياح
وقد بدا فى الافق نور الصباح
ما صاح الا نادبا ليلة
ولت من العمر السريع الرواح

*

جادت بساط الروض كف السحاب
فنزه الطرف وهات الشراب
فهذه الخضرة من بعدنا
تنمو على أجسادنا فى التراب

*

وانما بالموت كل رهين
فاطرب فما أنت من الخالدين
واشرب ولا تحمل أسى فادحا
وخل حمل الهم للاحقين

*

لا تشغل البال بماضى الزمان
ولا بآتى العيش قبل الاوان
واغنم من الحاضر لذاته
فليس فى طبع الليالى الامان

*

طبعى ائتناسى بالوجوه الحسان
وديدنى شرب عتاق الدنان
فاجمع شتات الحظ وانعم بها
من قبل أن تطويك كف الزمان

*

أذا سـقاك الدهـر كـاس العـذاب
فلا تبـن للنـاس وقـع المصـاب
واشرب علـى الاوتـار رنـانـة
مـن قبـل ان تحـطم كأس الشراب

◆ وفى هذه المعانى يقول «البستانى» فى ترجمته للرباعيات :

سفر هذى الحياة حان ختامه   وتداعت بابن الخيام خيامـه
وتدانت من حدها ايامه
وليالى الربيع كـن قصارا   وهزار الشباب غنى وطـارا
يا هزار الشباب ماكنت أرضى   منك هذا ، تعال غن ، تعـالا

*

أيهذا الخيام ، مـا الاجسام   للنفوس ـ الارواح ـ الا خيام
ولحين ، ان طاب فيها المقام
ثم يهجرنها الى «لا مـكانا»   ثم هذا الخيام يصبح « كانا »

*

يا صاح هـذى قوافل الايام   تنهب العمر فاستجر بالمدام
لغد فيه سوف يبكى علينـا   وقليـل من الزمـان لدينـا
فاغتنمهواسكبوهات وخذها   وانتهب فرصة البقاء انتهابـا

*

نفس ، بين شـكنا واليقين   نفس ، بين كفرنا والديـن
كم نفيس غال ، وكم من ثمين
دونه قيمة ، فقـم نتمتـع   قبلما ينزل القضاء فيقطـع
ليس بين الحياة والمـوت الا   نفس واحد يبت اقتضابـا

◆ ثم يقول «الصراف» فى ترجمته النثرية لرباعيته فى هذا المعنى :

اشرب الخمر على ضوء القمر
لان القمر
أيها القمر
سيطلع كثيرا ولا يجدنا

فى العشق والهوى

◆ وللخيام فى هذا الباب معان تجمع بين القوة والرقة ، والمرح والكآبة ، والامل ، واليأس ... فلنستمع اليه يقول من شعر أحمد رامى :

القلب قد أضناه عشــق الجمــال
والصدر قد ضاق بما لا يقــال
يا رب هل يرضيك هذا الظمــا
والمــاء ينســاب أمامى زلال

*

أولــى بهــذا القلــب ان يخفقــا
وفى ضــرام الحــب ان يحــرقــا
مــا أضيع اليــوم الذى مــر بــى
مــن غــير ان أهــوى وأن أعشقــا

*

خــير لى العشــق وكــأس المــدام
مــن ادعــاء الزهــد والاحتشــام
لــو كانــت النــار لمثــلى خلــت
جنــات عــدن مــن جميع الانــام

◆ ثم تعتريه نوبة تشاؤم ، فيشبه الحب بالنور الذى يحرق ، بعد أن شبهه بالماء الزلال ! ويخشى ان يقوده الى الهلاك ، بعد أن زعم أنه فتح له أبواب الجنة :

مصبــاح قلبى يستمد الضيــاء
من طلعــة الغيد ذوات البهــاء
لكننى مثل الفــــراش الذى
يســعى الى النور وفيه الفنــاء

◆ ويتفاقم تشاؤمه فيخيل اليه أنه يسير فوق تراب متخلف من جثث الحســان :

فامش الهوينــا ان هذا الثــرى
من أعــين ســاحرة الاحــورار

◆ ورحم الله «أبا العلاء» القائل :

خفف الوطـأ ما أظـن أديم ال
أرض الا من هـذه الاجسـاد
سر اذا استطعت فى الهـواء رويدا
لا اختيـالا علـى رفات العبـاد

◆ وقد ترجم «أحمد حامد الصراف» رباعية من هذا القبيل فقال (وهو الضليع فى الفارسية ، بل الناشىء فى حجر مربيته الفارسية «بى بى جان») :

رأيت أمس خـزافا
يركل قطعة من طـين
وكأنها تقول للخراف
لقد كنت يا هـذا مثلك ، فارفق بى !

◆ وفى هذا الباب نظم «البستانى» عن الخيام رباعياته التالية :

وثغور الازهار ياذا الحبيـب من ثغـور لألاؤها محجوب
لك قلب وفى الاديم قلوب
خفف الوطء فوق هذا النبات وارحم النجم من صدور البنات
نجم النبت طاب نوم العذارى لا مفيق منـه بهن أهابـا

*

كم حبيب كان الجليس الانيس كلما شعشع الندامى الكؤوس
كم حبيب ، سل الثرى والرموس
واحدا بعد واحـد ودعونى وأسى يلهب الحشا أودعونى
فرغ البيت والمقابر مـلأى والعيون الملأى تفيض انسكابا

*

فى خمارى أبصرت ان مر قربى شبح ، حبه تملـك قلبـى
فتدانى وقال : تشرب نخبى
رحم الله كل من قال شعرا رحم الله كل من ذاق خمرا
هكذا قال لى خيـال حبيبى وبصحوى ضيعت ذاك الخيالا

*

يا حبيبى من لى سواك ومن لى بغد منـل يومـك المتجلى
فاغتنمه ، وخل همك ، خل

وأدرها ، وانظر أخاك جمالا يتهادى بين الدرارى اختيالا
ليت‌شعرى، بدرالسماء، أنحيا لنرى وجهك الجميل هلالا ؟

◆ ويستبد بالخيام جحيم الهوى حتى يخرجه عن طوره ، فيخاطب ربه بهذه الابيات :

نصبت فى الدنيا شراك الهوى
وقلت أجزى كل قلب غوى
أتنصب الفخ لصيدى وان
وقعت فيه قلت : عاص هوى

*

ولماذا نصبتها اشراكا ألألقى على يديك الهلاكا ؟
رب ، يا رب ، من أنا لولاكا ؟

*

تضع الاشراك فى ألف مكان
وتقول اذا وقعت فيها فانى مبيدك !
لا تخلو ذرة من سلطانك
أنت تقدر على الحكم وتنعتنى بالعاصى ؟

◆ والخيام فى الكثير من رباعياته متناقض مع نفسه ، (بل انه يناقض رأيه أحيانا فى شطرى الرباعية الواحدة ، كما سترى) .. فهو تارة ماجن مستهتر ، وتارة زاهد متنسك .. حينا ملحد كافر ، وحينا مؤمن تقى .. آنا متفائل ، وآنا متشائم .. من احدى رباعياته تفوح رائحة الخمر والكفر ، ومن الاخرى تتصاعد صلوات الابتهال والاستغفار !.. ولا عجب ، فقد نظم رباعياته هذه فى فترات وظروف مختلفة من حياته ، فجاءت فى كل آن صدى صريحا لشعوره وخواطره ـ فى محنه أو افراحه ـ ومن أمثلة رباعياته التى تهب منها ريح الالحاد :

كان الذى صورنى يعلم
فى الغيب ما أجنى وما آثم
فكيف يجزينى على أننى
أجرمت والجرم قضا مبرم

◆ ١) و٣) البستانى ٢) و٥) رامى ٤) الصراف

اين طهور النفس عف اليمين
وكيف كانت عيشة الصالحين
ان كنت لا تغفر ذنبى فما
فضلك يا ربى على العالمين

*

أنا العبد العاصى فأين رضاؤك
أنا المظلم قلبا فأين نورك
ان كنت تهبنا الفردوس لطاعتنا لك
فذاك بيع ، فأين فضلك وعطاؤك

*

انا عبد عاص رجوت رضاك وفؤادى المظلم رجى ضياك
فتفضل واسكب علينا صفاك
رب حاشاك ان تبيع النعيما بيع سوم ان كنت ربا رحيما
أفأنت المدين يدفع دينا أم كريم يعطى ندى ونوالا ؟

*

عبد حسن ، وعابد الصهباء فى نعيم من جنة وسماء
لا المرائى ، فالنار مثوى المرائى
ولئن صح اننا ــ العشاق والندامى ــ هناك لن نتلاقى
عمرك الله يا نديم فقل لى : من سوى الله فى السماء تعالى ؟

*

طبائع الانفس ركبتها
فكيف تجزى أنفسا صغتها
وكيف تفنى كاملا أو ترى
نقصا بنفس انت صورتها

◆ ١) و٥) رامى ٢) الصراف ٣) و٤) البستانى

أبدعت فينا بينات العبر
وصفتنا يا رب شتى الصور
فهل أطيق اليوم محو الذى
تركته فى خلقتى من أثر

*

انا الذى ابدعت من قدرتك
فعشت أرعى فى حمى نعمتك
دعنى الى الآثام حتى أرى
كيف يذوب الاثم فى رحمتك

*

يا نفس ما هذا الاسى والكدر
قد وقع الاثم وضاع الحذر
هل ذاق حلو العفو الا الذى
أذنب والله عفا واغتفر

*

دنياك ساعات سراع الزوال
وانما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا
وتشترى دنيا المنى والضلال

◆ وفجأة ينقلب الخيام من النقيض الى النقيض ، فاذا هو يسبح لربه ويعظ البشر ويوبخ الضالين :

الله يدرى كل ما تضمر
يعلم ما تخفى وما تظهر
وان خدعت الناس لم تستطع
خداع من يطوى ومن ينشر

ولســت مهما عشــت اخشى العـدم
وانمــا اخشى حيــاة الالــم
اعارنــى اللــه حيــاتى ومــن
حقوقه استرداد هذى النســم

*

يا رب فى فهمك حار البشــر
وقصــر العاجز والمقتـــدر
تبعث نجــواك وتبدو لهــم
وهم بلا سمع يعى أو بصــر

◆ وكأنى به يردد هــذه الابيات التى كان يتغنى بها فى كل مناسبة شاعر العراق الخالد جميل صدقى الزهاوى :

عبدتك لاأدرى ولا أحد يدرى · أسرك أم صدرالطبيعة أوسع
فأيقنت أن الكون بالله قائم · وأيقنت أن الله للكون مبدع
وأنك معنى ، والخليقة لفظة · وأنك نور ، والخليقة برقع

◆ على أن الخيام لم يناقض نفسه فى رباعياته المختلفة فحسب ، وانما ناقض نفسه أيضا فى شطرى الرباعية الواحدة أيضــا ، كما فى قوله فى هاتين الرباعيتين مثلا :

لا طيب فى الدنيــا بغــير الشــراب
ولا شــجى فيهــا بغــير الربــاب
فكــرت فى أحــوالهــا لــم أجــد
أمتــع فيهــا من لقــاء الصحــاب

*

نار الهوى تمنع طيب المنــام
وراحــة النفس ولذ الطعــام
وفاتــر الحب ضــعيف اللظى
منطفىء الشعلة خابى الضــرام

فى المقدر والمكتوب



◆ لعل أشهر نزعة عرف بها الخيام الى جانب « خمرياته » هى ايمانه بالقدر والمقسوم ، أو « المكتوب على الجبين » ، بحيث صارت هذه النزعة تقترن باسمه فى الاذهان لاول وهلة ، ولا سيما فى أذهان الغربيين الذين لا يؤمنون بالقدر ايماننا به نحن الشرقيين .. وقد تخيل الرسام فى الرسم المجاور يد القدر وهى تخط المصائر فى اللوح المحفوظ ..

لن يرجع المقدار فيما حكم
وحملك الهم يزيد الالم
ولو حزنت العمر لن ينمحى
ما خطه فى اللوح مر القلم

*

علام تشقى فى سبيل الالم
ما كنت تدرى انك ابن العدم

الدهـــر لا تجـــرى مقـــاديـــره
بأمرنـــا فارض بمـــا قـــد حكـــم

*

اللـــه قـــد قـــدر رزق العبـــاد
فـــلا تؤمـــل نيـــل كـــل المـــراد
ولا تـــذق نفســـك مـــر الاســـى
فانمـــا أعمـــارنا للنفـــاد

*

تحمـــل الـــداء كبـــير الرجـــاء
انـــك يومـــا ستنال الشـــفاء
واشـــكر علـــى الفقـــر الذى ان يرد
أصبحـــت موفـــور الغنى والثـــراء

◆ على ان الخيام لايلبث ان يستغل هذا الايمان بالقدر ، كى يحاول التنصل من تبعة أعماله !

خلقتنى يـــا رب مـــاء وطيـــن
وصغتنى ما شئت عزا وهـــون
فما احتيالى والذى قد جـــرى
كتبتـــه يا رب فوق الجبيـــن

◆ وشبيه بهذا قول « الزهاوى » فى ترجمة رباعية :

قيل لى تب فقلت ان كان ربى لم يشأ لى توبة فكيف أتوب
لعبوا بالتراب دهـــرا الى أن جبلوا منه فى النهاية طينى
أنا ما أن أكون أحســـن منى فمن الكور هـــكذا أفرغونى

◆ او قول البستانى فى رباعية مشابهة :

ياحبيبى ماحيلتى، ما اقتدارى حكم رب الافلاك فى الكون جارى
ولو انى مقدر الاقدار
لاعتدى القلب بالامانى حـــرا لا يعانى من ((لو))و((ليت))الامرا
ويح قلب الانسان كم يتمنى ومحال دون الامانى حـــالا

في السماء الزرقاء ساق يطوف وعليه من الظلام سجوف
والندامى عند السماء ضيوف
هو ساق يطاع فاشرب مطيعا من يديه ولا تنهد جزوعا
تلك كأس المنون كل الندامى شاربوها ففاقدوه صوابا

*

ما يلاقيه مصبح أو ممسى من سعود او من طوالع نحس
كان فى الغيب قبل أول أمس

فى الزهد والقناعة

◆ ومن رباعياته فى الزهد والعزوف عن عروض الدنيا :

الدرع لا تمنع سهم الاجل
والمال لا يدفعه ان نزل
وكل ما فى عيشنا زائل
لا شىء يبقى غير طيب العمل

*

تملك الناس الهوى والغرور
وفتنة الغيد وسكنى القصور
ولو تزال الحجب بانت لهم
زخارف الدنيا وعقبى الامور

*

كنا فصرنا قطرة فى عباب
عشنا وعدنا ذرة فى التراب
جئنا الى الارض ورحنا كما
دب عليها النمل حينا وغاب

*

ان الذى يعرف سر القضاء
يرى سواء سعده والشقاء

العيش فان فلندع أمره
أكان داء مسنا أم دواء

*

وانما الدنيا خيال يزول
وأمرنا فيها حديث يطول
مشرقها بحر بعيد المدى
وفى مداه سيكون الافول

*

ان الألى ذاقوا حياة الرغد
وأنجز الدهر لهم ما وعد
قد عصف الموت بهم فانطووا
واحتضنوا تحت تراب الابد

*

زخارف الدنيا أساس الألم
وطالب الدنيا نديم الندم
فكن خلى البال من أمرها
فكل ما فيها شقاء وهم

◆ وفى هذا يقول البستانى فى نظمه للرباعيات :

ولكم قام فى الورى من حكيم وخطيب وفيلسوف عظيم
وأتونا بكل قول عقيم
وهم الآن فى الثرى ساكنونا بعدما اقلقوا الدنى صامتونا
رب قول قالوه كان هواء بهواء فى السمع رن خطابا

*

كيف يا روح تلبسين الهوانا ان لبست الاجساد والابدانا
فاخلعيها ، ثوب البلى ، أكفانا
مزقى اللحم والعظام وعودى لديار العلى وعرش الخلود
بئس هذا الجثمان للروح دارا حيث تشقين غربة واعتقالا

فى النصح والحكمة

◆ وفى هذا الباب يتحفنا الخيام بحكم ونصائح هى ثمرة التجارب المريرة والفهم العميق للحياة :

عش راضيا واهجر دواعى الالم
واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش
فيها طليقا واعتبرها عدم

*

ان الذى تأنس فيه الوفاء
لا يحفظ الود وعهد الاخاء
فعاشر الناس على ريبة
منهم ولا تكثر من الاصدقاء

*

عاشر من الناس كبار العقول
وجانب الجهال أهل الفضول
واشرب نقيع السم من عاقل
واسكب على الارض دواء الجهول

*

أحسن الى الاعداء والاصدقاء
فانما أنس القلوب الصفاء
واغفر لاصحابك زلاتهم
وسامح الاعداء تمح العداء

*

عامل كأهليك الغريب الوفى
واقطع من الاهل الذى لا يفى

لا تأمل الخل المقيم الوفاء
فأنما أنت بدنيا الرياء
تحمل الداء ولا تلتمس
له دواء وانفرد بالشقاء

*

من يحسب المال أحب المنى
ويذرع الارض يريد الغنى
يفارق الدنيا ولم يختبر
فى كده أحوال هذى الدنى

فى اليأس والمرارة

◆ وينتهى الخيام من فهمه الصحيح للحياة ٠٠ الى اليأس والمرارة ، فيقول على لسان « رامى » :

أفنيت عمرى فى ارتقاب المنى
ولم أذق فى العيش طعم الهنا
واننى أشفق أن ينقضى
عمرى وما فارقت هذا العنا

*

أفنيت عمرى فى اكتناه القضاء
وكشف ما يحجبه فى الخفاء
فلم أجد أسراره وانقضى
عمرى وأحسست دبيب الفناء

*

أحس فى نفسى دبيب الفناء
ولم أصب فى العيش الا الشقاء
ياحسرتا ان حان حينى ولم
يتح لفكرى حل لغز القضاء

الدهـــر لا يعطى الـــذى نأمـل
وفى سبيـل اليأس مـا نعمـل
ونحن فى الدنيــا على همهــا
يسوقنــا حادى الردى المعجــل

*

نمضى وتبقى العيشـــة الراضيـة
وتنمحى آثـــارنا الماضيـــية
فقبــل أن نحيــا ومن بعــدنا
وهـــذه الدنيــا على ماهيــه

*

وكلمـــا راقبـــت حـــال الزمـــن
رأيتــه يحــرم أهـــل الفطـــن
سبحـــان ربـــى • كلمـــا لاح لـــى
نجـــم طـــوتـــه ظلمـــات المحـــن

*

سئمت يـــا ربـــى حيـــاة الالـــم
وزاد همى الفقر لمـــا ألـــم
ربى انتشلنى مـــن وجـــودى فقـــد
جعلـــت فى الدنيـــا وجـــودى عـــدم

*

لبست ثـــوب العيش لـــم أستشر
وحـــرت فيه بين شتى الفـــكر
وســـوف أنضـــو الثوب عنى ولـــم
أدرك لمـــاذا جئت • أين المقـــر

*

لـــو اننى خـــيرت أو كان لـــى
مفتـــاح بـــاب القـــدر المقفـــل

لاخترت عن دنيا الاسى انني
لم أهبط الدنيا ولم أرحل

*

ليتك يا ربى تبيد الوجود
وتخلق الاكوان خلقا جديد
فتغفل اسمى أو تزيد الذى
قدرت لى فى الرزق بين العبيد

◆ وقد نظمها البستانى فى هذه « السباعيات » :

ليت شعرى فى هذه الامنية لو يعيد الرحمان خلق البرية
وانا عن يمينه العلوية
لتضرعت قائلا لا يقدر لى وجود، وليمح لى اسم تسطر
أو فقدر لى الكفاف فأرضى وأهنيك يوم أهنأ بالا

ما برأيى أقدمت هذى الديارا وسأضطر للرحيل اضطرارا
واختيارى ، ان استطعت اختيارا
بنت كرم صهباء تجلو الهموما فى حياة ملأى أسى وغموما
فأدرها سلافة واسقنيها نعمة فالوجود كان مصابا

*

وأجبنى ووافنى لاعتزال وابتعاد عن كل قيل وقال
رب قفر من المظالم خال
ليس فيه عبد ولا سلطان هو عندى المكان نعم المكان
رب كهف ونحن حر لحر فاق قصرا طالت ذراه السحابا

◆ ونظم « الهاشمى » المعنى الاول بعد أن ترجمه « الصراف » عن الفارسية فقال :

جيئتى فى الدنيا أذى واضطراب وبقائى تحير وارتياب
وبقسر يكون منى ذهاب أى قصد من جيئة وبقاء
وذهاب ؟ قد ضلت الالباب

فى التوبة والاستغفار

◆ ويفىء الخيام من ضلاله آخر الامر الى الندم والتــوبة ٠٠ فيستغفر ربه مبتهلا فى حرارة تلمس أوتار القلوب :

يا من يحار الفهـــم فى قدرتك
وتطلب النفس حمى طاعتـــك
أســكرنى الاثــم ولكننى
صـحوت بالآمال فى رحمتــك

❊

تخفى عــن النـاس ســنا طلعتـك
وكــل مـا فى الكــون من صنعتـك
فانــت مجـلاه وانــت الــذى
تــرى بديــع الصــنع فى آيتــك

❊

أطال أهــل الانفس الباصــرة
تفكيرهــم فى ذاتك القـــادرة
ولم تـــزل يا رب أفهـــامهم
حيــرى كهذى الانجم الحـــائرة

❊

ان لـــم أكن أخلصت فى طاعتـــك
فاننى أطمــع فى رحمتـــك
وانمــــا يشفـــع لى اننى
قد عشت لا أشرك فى وحــدتك

❊

رب رحماك ان اردت الحسابا انما قلت ما حسبت صوابا
أفألقى على يديك العقابا ؟

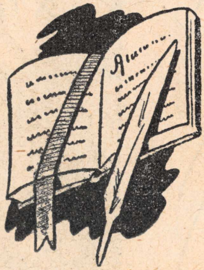


يارب مهد لى سبيل الرشاد واكتب لى الراحة بعدالجهاد
وأحى فى نفسى المنى مثلما يحيى موات الارض صوب العهاد

*

يـا عالـم الاسـرار علم اليقـين
يـا كاشـف الضر عـن البائسـين
يـا قابـل الاعـذار فئنـا الـى
ظلـك فاقبـل توبـة التائبـين

الحياة قصة



روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد الماضية من « كتابى » ، القصص الآتية على التوالى :

- أموك : لستيفان زفايج
- قلب عذراء: جون جالزورثى
- مرتفعات وذرنج: اميلى برونتى
- التلميذ : بول بورجيه
- أحدب نوتردام: فيكتورهوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة : لورد ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله: روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : جورج أونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين: سنكليرلويس
- الشيطان على الارض : برتراند رسل
- تاييس : أناتول فرانس
- رسالة من مجهولة : ستيفان زفايج

واليوم اقدم لك فيما يلى هذه القصة من قصص ترجنيف التى تحس وانت تقرأها كأن نسائم الشباب تهب عليك من الماضى السحيق

الحب الأول

قصة كبرى للروائى الروسى

إيفان ترجنيف



الساعة الكبرى فى غرفة المائدة تدق النصف بعد الثانية عشرة .. كانت المأدبة قد انفضت وانفرط عقدها ، ولم يبق فى الغرفة غير رب البيت واثنين من ضيوفه ، هما «سرجى نيكولايفتش» و «فلاديمير بتروفتش» .. فدق رب البيت الجرس وامر الخادم برفع بقايا الطعام ، ثم غاص فى مقعده المريح واشعل سيجارة ، وقال لجليسيه : **«اذن اتفقنا .. فليرو كل منا قصة حبه الاول ، ولتبدأ انت يا سرجى ...»**

فالتفت سرجى – وهو رجل صغير الجسم صبوح الوجه – الى مضيفه ، ثم رفع بصره الى السقف برهة كالمفكر ، وقال بعد حين : «لم يكن لى حب اول .. فقد بدأت بالثانى..!»

– عجبا ، وكيف حدث ذلك .. ؟

– انه امر فى غاية البساطة . كنت فى الثامنة عشرة حين اقدمت على اول مغامرة غرامية لى ، مع حسناء فاتنة .. لكنى لم اجد فى حبها ، او حب من تلونها من النساء ، اى جديد .. وعلى هذا فانى اعتبر ان حبى الاول – والاخير – هو الذى أصابنى فى سن السادسة ، حين اغرمت بمربيتى !.. لكن تفصيلات علاقتنا ووقائع حبنا ذاك قد تبخرت من ذاكرتى .. ولو كنت اذكرها فما اظنها تشوق احدا ..

وسكت سرجى منهيا كلامه .. فقال رب البيت : «وانا بدورى اعتقد ان قصتى لا تشوقكما .. فانى لم احب امرأة قط قبل التقائى بزوجتى «انا نيكولايفنا» !.. وقد سار كل شىء بيننا طبيعيا ، وتم زواجنا ببساطة وفى اسرع وقت .. وهكذا تتلخص قصة حبى الاول فى كلمات . والواقع انى حين اقترحت ان يروى كل منا قصة حبه الاول كنت اعتمد عليكما ، انتما الاعزبين المخضرمين .. وها هو سرجى قد خذلنى ، فهلا اتحفتنا يا «فلاديمير» بقصة مسلية ؟»

كان «فلاديمير» رجلا جاوز الاربعين ، ذا شعر اغبر كان فى شبابه فاحم السواد .. فقال بعد تفكير : **«من حسن حظكما ان حبى الاول لم يكن عاديا ، فاذا شئتما رويت لكما قصته .. ولكن ، كلا ، لو رويتها لجاءت جافة مقتضبة . الافضل ان اكتبها باسهاب وروية ، ثم اقرأها عليكما غدا ..»**

وفى الليلة التالية قرأ عليهما «فلاديمير» القصة التالية :

— ١ —

◆ فى سنة ١٨٣٣ كنت فى السادسة عشرة ، اعيش فى موسكو مع والدى .. فلما اقبل الصيف استأجرنا بيتا فى الريف ، مواجها لحدائق «نسكتشنى» . وكان والدى يعاملنى معاملة طيبة ، اقرب الى التسامح وقلة الاكتراث .. اما والدتى — التى كانت تكبره بعشرة اعوام ، والتى تزوج منها طمعا فى مالها ! — فكانت كذلك منصرفة عنى (برغم كونى ابنها الوحيد) الى ملاحقة زوجها الشاب بغيرتها الشديدة وغضبها ، ولكن فى غير حضوره .. فقد كان قاسيا حازما بارد الاعصاب ، بحيث كانت تخشاه وترهبه .. ولا تجرؤ على مواجهته بثوراتها !

وهكذا اتاح لى جو البيت ان انعم بقسط وافر من الحرية ، افعل فى ظله كل ما يحلو لى .. وخاصة بعد ان انتهت مرحلة دراستى المنزلية على اساتذة خصوصيين ، وظفرت بعطلة طويلة استعدادا لالتحاقى بالجامعة بعد انقضاء الصيف ..

ولن أنسى الاسابيع الاولى التى قضيتها فى ذلك المنزل الريفى . كان الطقس رائعا ، فاعتدت أن اتنزه فى حديقتنا والحدائق العامة المجاورة ، وفى يدى كتاب ما .. ولكن كان يندر ان افتحه ، وانما كنت أوثر أن اردد أبياتا من الشعر

الذى احفظه بصوت مسموع وانا سائر بين الاشجار ، ودمى يجرى فى عروقى ، وقلبى يرف بين ضلوعى رفيفا عذبا غريبا ، لا عهد لى به من قبل !.. **كان يملأ أعطافى الامل ، والترقب ، والخوف من شىء ما ، والعجب من كل شىء .. وخيالى يحلق بى على الدوام فى الآفاق البعيدة ، ويحوم حول النزوات الحمقاء ، كما تحلق الحمائم فوق ابراج الاجراس عند الفجر ! .. كنت احلم ، واكتئب ، وابكى احيانا .. ولكن من خلال الدموع والاشجان كانت عذوبة النغم الجميل او فتنة الليل الساجى تنتزعنى من همى فأستمرىء الاحساس اللذيذ بالشباب ، والحياة الفوارة ، وأزدهر كما تزدهر الحشائش فى الربيع .. !**

وكان عندى حصان اركبه ، فكنت أسرجه بنفسى وانطلق فى جولات بعيدة اركض فيها خلال الحقول بأقصى سرعة ، وأنا أتصور نفسى فارسا من فرسان العصور الوسطى البواسل ، والهواء يهمس فى اذنى بالامانى الحلوة ، فأرفع وجهى نحو السماء أستروح اشعاعها المشرق وأغترف زرقتها الصافية ، فأملأ منهما روحى الرحبة المفتوحة ابدا لاستقبالهما ..

فى ذلك الوقت لم تكن صورة المرأة ورؤى الحب تتخذ لنفسها فى ذهنى صورة واضحة محددة .. ولكن فى كل افكارى ومشاعرى كان يكمن احساس غامض خفى خجول ، نصف نائم ونصف يقظان ، بشىء جديد .. عذب .. انثوى ! .. وهو احساس هيمن على كيانى كله فتنفسته وجرى فى عروقى مختلطا بكل قطرة من دمى .. فكان مصيره حتما ان يشبع ويرتوى !

وكان بجوار البيت الذى استأجرناه فى ذلك الصيف مسكن خشبى صغير معد للتأجير .. وذات يوم ــ بعد نحو ثلاثة أسابيع من وصولنا ــ فتحت نوافذ المسكن المذكور وأطلت

منها وجوه بضع نسوة . كانت احدى الاسر قد استأجرته .. وفى نفس اليوم استفسرت امى من الخادم ونحن حول مائدة الغداء عن جيراننا الجدد، فلم يكد ينطق باسم الاميرة «زازيكين» حتى عقبت أمى فى لهجة احترام وتوقير : «آه ، أميرة ..» ثم اضافت : «ولكنها أميرة فقيرة فيما أحسب ..» فقال الخادم وهو يقدم احد أطباق الطعام : «نعم .. فقد أحضرت متاعها على عربات بالاجرة .. والمتاع كله متواضع من احقر صنف !» واذ ذاك قالت امى معلقة على كلامه: «هذا من حسن الحظ ..!» فحدجها ابى بنظرة لوم صارمة ، اسكتتها !

لكن الحديث كله لم يكن يعنينى ، فدخل سمعى من اذن، وخرج من الاخرى ..

— ٢ —

◆ **وكنت** قد اعتدت التجوال فى حديقتنا كل عصر ، بحثا عن غربان اصطادها ببندقيتى الصغيرة ، وفى ذاك اليوم تمخضت جولتى عن فشل ذريع .. وفيما انا عائد الى البيت صادف ان مررت بجوار السور المنخفض الذى يفصل حديقتنا عن حديقة الجيران .. وكان بصرى الى الارض حين طرق سمعى فجأة صوت صادر من الحديقة المجاورة .. فالتفت ناحية مصدره ، واذا بصرى يقع على منظر غريب فى بابه !

كانت فتاة طويلة رشيقة القد ، ترتدى ثوبا ورديا وتضع على رأسها منديلا أبيض ، منتصبة فوق الحشائش وسط «هالة» مكونة من أربعة شبان .. تضرب جباههم الواحد بعد الآخر بغصن رفيع من أغصان الشجر ، وهم يقدمون لها الجباه برضا وارتياح ! .. وكانت حركات الفتاة ولفتاتها فاتنة ، آمرة ، ساخرة الى حد كاد يخرجنى عن طورى ويجعلنى اصيح اعجابا بها وافتتانا ، بل أتمنى لو أنزل لها عن كل ما أملك نظير إن تمنحنى ضربة من اصابعها الرقيقة على جبينى !

واذهلنى جمالها عن نفسى ، فسقطت بندقيتى منى على الارض بغير ان أشعر ، ونسيت كل شىء الا المخلوقة الناعمة التى أراها أمامى فى وضع جانبى ، والتى راح بصرى ينهب رقبتها العاجية وذراعيها الناصعتين وشعرها المرسل تحت منديلها الابيض ، وعينيها نصف المغمضتين ، وأهدابها الطويلة، وخديها الناعمين !.. وفجأة صاح بى صوت رجل صادر من مدى قريب : «يافتى .. يافتى .. أيليق أن تنظر هكذا الى امرأة لا تعرفها ؟»

والتفت .. فاذا الرجل يرمقنى من وراء السور بنظرة ساخرة .. وفى نفس اللحظة استدارت الفتاة بوجهها نحوى ، وضحكت .. فبرقت عيناها الغبراوان بريقا خلابا ، ولمع بين قرمز شفتيها صف من الاسنان اللؤلؤية الجميلة.. فلم املك غير ان غضضت الطرف فى اجفال ، ثم التقطت بندقيتى ومضيت، وضحكتها الموسيقية تتبعنى .. حتى بلغت غرفتى فارتميت على الفراش ودفنت وجهى بين راحتى ، وقد اخذ قلبى ينتفض فى صدرى من فرط الخجل ، والفرح ، والانفعال الممتع الذى لم أكن قد تذوقته من قبل !

وحين تمالكت نفسى بعد برهة ، فصففت شعرى وهبطت الى الطابق الارضى لاتناول الشاى ، كانت صورة الفتاة تتماوج أمام عينى .. فسألنى والدى وقد لحظ اضطرابى : «ماذا ؟ .. هل قتلت غرابا ؟» واذ ذاك أوشكت ان اقص عليه كل شىء ، لولا انى قمعت ميلى فى آخر لحظة ، وابتسمت لنفسى .. !

— ٣ —

◆ « **كيف** اتعرف اليها ؟ »

كان هذا اول ما فكرت فيه حين استيقظت فى الصباح التالي .. فهبطت الى الحديقة قبل تناول الفطور ، لكني

جبنت عن الاقتراب من السور ! .. وبعد الافطار خرجت الى الشارع ، فجعلت اتمشى امام البيت ذهابا وايابا ، واتطلع الى نوافذ غرفتها من بعيد ، حتى لمحت وجهها وراء احدى الستائر فهرعت مبتعدا فى انزعاج ، مستأنفا طوافى العقيم بمحاذاة الحدائق العامة ، وانا اجهد ذهنى بالتفكير فى شىء واحد : « كيف اتعرف اليها ؟ »

لكن القدر كان رحيما بى ، فتولى حل مشكلتى من حيث لا ادرى . لم اكد اعود ادراجى الى البيت حتى علمت من امى انها تلقت فى فترة غيابى رسالة من جارتها الجديدة تسألها فيها ان تسمح لها بزيارتها كى توسطها لدى بعض ذوى المناصب الكبرى ممن تعرفهم ليذللوا لها عقبة تعترض بعض اعمالها .. **وعلى هذا طلبت منى امى أن أنوب عنها فى ابلاغ الاميرة ترحيبها ورجاءها ان تتفضل بزيارتها فى الساعة الواحدة اذا شاءت ..**

كتمت عن امى فرحتى بهذه الاستجابة السريعة لامنيتى، وصعدت الى غرفتى فأبدلت ثيابى ، ثم هبطت اعدو الى بيت الاميرة ..

وعلى باب الحديقة ، او الممر الضيق المؤدى الى البيت ، استقبلنى خادم اشيب الشعر أسمر الوجه ، متسائلا : «ماذا تريد ؟»

ـ هل الاميرة زازيكين فى البيت ؟

وقبل ان يجيبنى سمعت صوتا نسائيا يناديه من الداخل: « فوتيفانى !» .. فأدار الرجل ظهره ومضى ليلبى نداء سيدته .. ثم عاد يدعونى الى الدخول ، فبذلت مجهودا كبيرا للسيطرة على اعصابى وهو يقودنى الى غرفة الاستقبال .. وهناك وجدت امرأة فى نحو الخمسين ، قبيحة الخلقة ، تجلس فوق مقعد مريح بقرب النافذة ، وعيناها السوداوان الصغيرتان

ترقبان الباب ، فاتجهت اليها رأسا وانحنيت امامها محييا ، ثم قلت : « أحسب ان لى شرف مخاطبة الاميرة زازيكين ؟ »

ـ انا الاميرة زازيكين .. وانت ابن مسيو «ف» ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، وقد جئت برسالة من امى ..

ـ تفضل بالجلوس ..

وانهيت اليها رد أمى على رسالتها ، فاستمعت اليه وهى تنقر على اطار النافذة باصابعها الحمراء المتورمة ، وحين انهيت كلامى نظرت الى نظرة ثابتة ثم قالت : «حسنا .. سوف آتى بالتأكيد .. انك تبدو صغيرا ، كم سنك .. اذا جاز لى ان اسأل ؟»

ـ ست عشرة سنة ..

ـ جميل .. والآن اعتبر نفسك فى بيتك ، فأنا أمقت الكلفة والمظاهر الرسمية ..

وفى تلك اللحظة انفتح باب الغرفة وبرزت منه الفتاة التى رأيتها فى الليلة السابقة فى الحديقة .. فلم يكد بصرها يقع على حتى ارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة .. بينما قالت الام مشيرة اليها : «هذه ابنتى «زينوتشكا» .. وهذا هو ابن الجيران .. هل لى ان أسألك عن اسمك ؟»

فاجبتها وأنا أنهض محييا الفتاة فى اضطراب : «فلاديمير»

ـ واسم والدك ؟

ـ بتروفتش

ـ كنت اعرف فيما مضى «قوميسيرا» للبوليس يدعى فلاديمير بتروفتش ايضا ..

وكانت الفتاة ما تزال ترمقنى بنفس النظرة ، وهى تميل برأسها قليلا ، واجفانها تختلج فى حركة رشيقة .. ثم قالت اخيرا : «لقد رأيت «فولدمار» من قبل . اتسمح لى ان ادعوك

بهذا الاسم ؟)) .. وكان فى صوتها جرس كرنين الفضة ، بعث فى أوصالى رعشة عذبة .. فأجبتها فى لهفة : ((بربك افعلى))

وتنبهت الاميرة الام متأخرة ، فسألت : «ماذا تقولان ؟» .. لكن ابنتها لم تجبها ، بل مضت فى حديثها معى بغير ان تحول بصرها عنى : «هل عندك ما يشغلك الآن ؟»

ـ كلا ..

ـ اذن هل لك ان تساعدنى فى طى بضع كرات من صوف الابرة ؟ هيا بنا ..

وأومأت الى برأسها كى أتبعها ، فسرت وراءها الى غرفتها كما لو كنت امشى فى حلم .. حتى جلست هى على مقعد واشارت الى كى اجلس فى المقعد المقابل ، ثم فكت رباط «شلة» من الصوف الاحمر ووضعتها بين رسغى يدى .. كل ذلك وهى صامتة تفتر شفتاها عن تلك الابتسامة الخفيفة الماكرة ! .. ثم بدأت تطوى الخيط على كرة صغيرة من الورق .. وفجأة رمقتنى بنظرة براقة خاطفة سببت لى دوارا ، فلم أقو على الصمود لها ، وغضضت بصرى مرغما .. فسألتنى بعد لحظة : «ماذا دار بخاطرك عنى أمس يا فولدمار ؟ احسبك أسأت بى الظن ؟! »



فأجبتها فى ارتباك : « انا .. يا صاحبة السمو . . ابدا .. كيف ؟ »

فقالت معقبة : **«أصغ الى . انك لا تعرفنى جيدا .. انا مخلوقة غريبة ، احب دائما ان اسمع قول الصدق ، وانت ـ كما ذكرت الان ـ فى السادسة عشرة ، وانا فى الواحدة والعشرين .. وهكذا ترى اننى اكبر منك بسنوات ، واذن فيجب ان تصدقنى القول دائما ، وان تفعل ما اطلبه منك .. انظر الى .. لماذا لا تنظر الى ؟»**

وكنت لا أزال مرتبكا ، لكنى تحاملت على خجلى ورفعت عينى اليها .. فابتسمت ، لا ابتسامتها الاولى ، وانما ابتسامة تشجيع .. ثم قالت بصوت متهدج حنون : « انظر الى .. لست أمانع فى ذلك .. فانى معجبة بك ، واشعر شعورا غامضا بأننا سوف نصير اصدقاء .. ولكن ، ترى هل اعجبتك ؟»

ـ يا صاحبة السمو ..

لكنها قاطعتنى قائلة : «اولا يجب ان تنادينى باسمى «زينايدا الكسندروفنا» .. وثانيا انها عادة سيئة فى الشباب ألا يجاهروا بآرائهم ومشاعرهم فورا وبصراحة .. اننى اعجبك ، أليس كذلك ؟»

فأجبتها وانا أتكلف اقصى ما استطعت من مظاهر «الرجولة» والاتزان : «بلاشك ، يا زينايدا الكسندروفنا .. ولست أميل الى اخفاء شعورى ..»

فهزت رأسها فى خفة ، ثم سألتنى فجأة : «هل لك مرب أو معلم خصوصى ؟»

ـ أوه ، كلا .. كان ذلك منذ زمن بعيد ..

وقد كذبت ، فانه لم يكن مضى شهر على رحيل معلمى الفرنسى .. لكن اكذوبتى أثمرت ثمرتها التى اردتها ، فقد علقت على جوابى قائلة : «اذن فانت قد كبرت !..» ثم نقرت على اصابعى واضافت : «امدد ذراعيك بالخيط جيدا !» .. وانهمكت من جديد فى طى خيوط الصوف على كرة الورق ،

فانتهزت فرصة اطراقها ببصرها الى اسفل وجعلت أتأملها بامعان وجرأة تزايدتا تدريجا !.. فبدا لى وجهها اجمل واشد فتنة منه بالامس . كان كل ما فيه عذبا جذابا . وكانت جالسة وظهرها الى نافذة عليها ستارة بيضاء شفافة ، تنساب خلالها اشعة الشمس فلا يقع منها الا ظلها الناعم على جدائل شعرها الذهبى ، وعنقها الناصع ، وكتفيها المستديرتين ، ونحرها المخروط بانتظام رائع !.. **فمضيت اتملى من جمالها وأفكر . شعرت كأنى اعرفها منذ زمن ، بل كأنى لم اعرف الحياة او اتذوقها قبل ان ألقاها .. كانت ترتدى ثوبا بسيطا ، فتملكنى ميل قوى وحنين الى تقبيل كل ذرة من ذلك الثوب ! ولمحت طرف حذائها من تحت ردائها .. ماذا لو انحنيت فلثمت حذاءها ؟!** .. وهمست لنفسى : «ها أنذا قد تعرفت اليها .. بل ها أنذا جالس امامها .. فأية سعادة حبوتنى بها يا ربى ؟» وبذلت مجهودا كى لا اقفز من مقعدى نشوان .. فقد كنت سعيدا سعادة السمك فى الماء ، ولو خيرت لبقيت فى تلك الغرفة لا أبرحها .. الى الابد !

ثم رفعت الفتاة أجفانها ببطء الى ، ومرة اخرى برقت عيناها بريقا حنونا ، وابتسمت ، وهى ترفع اصبعها نحوى مهددة : «كيف جرؤت ان تنظر الى ؟» .. فصعد الدم الى وجهى ، وجالت الخواطر برأسى : «انها قد لحظت كل شىء ، وفهمتنى !.. كيف لا وهى .. »

وفى تلك اللحظة سمعنا دقا على الباب .. كان الطارق خادمنا نحن ، ارسلته أمى ليتعجل عودتى حاملا رد الاميرة على دعوتها .. فخرجت بصحبة الفتاة الى غرفة امها ، وهناك انحنيت للاميرة قائلا : «آن لى أن أذهب ياصاحبة السمو ، فهل اقول لامى انك قادمة لزيارتها حوالى الساعة الثانية ؟» فقالت : «نعم ، يابنى ..» ثم رفعت الى أنفها علبة السعوط

التى فى يدها فتنشقت منها انفاسا ، بينما كنت استدير للخروج .. وتبعنى صوت الابنة يقول : «تعال لزيارتنا ثانية يا فولدمار» ثم ضحكت !

«لماذا تضحك دائما ؟» أخذت أدير هذا التساؤل فى ذهنى وانا عائد الى البيت . وحين وصلت أنبتنى أمى بعنف على تأخرى ، فلم أجب بحرف .. وأسرعت الى غرفتى لاخلو بنفسى .. وأحلم !

— ٤ —

◆ وفى الموعد المحدد جاءت الاميرة لزيارة أمى ، لكنها تركت فى نفسها أثرا سيئا ، فقد قالت أمى لابى على اثر ذلك ونحن جلوس حول مائدة الغداء : «ان هذه الاميرة زازيكين تبدو امرأة سوقية مشاكسة ، وقد صدعت رأسى بالحديث عن منازعاتها القضائية والمالية التى تطلب منى التوسط لها بشأنها لدى أحد الامراء !» .. ثم أضافت أمى انها برغم ذلك قد اضطرت لدعوتها هى وابنتها لتناول الطعام فى اليوم التالى ، بحكم الجوار واللقب الذى تحمله على الاقل !.. وقد علق أبى على الحديث بقوله انه قد تذكر اخيرا انه كان فى شبابه يعرف زوج الاميرة المرحوم «زازيكين» ، الذى كان يعرف فى المجتمعات بلقب «الباريسى» نظرا لانه قضى فترة طويلة من شبابه فى باريس ، وقد كان من الاثرياء لكنه أضاع ثروته فى القمار !.. ثم أضاف ابى انه قد سمع ان الابنة جميلة ومثقفة ، مثل أبيها لا أمها !

وانتهت المناقشة عند هذا الحد .. وبعد الغداء خرجت الى الحديقة ، بعد ان أقسمت لنفسى ألا اقترب من حديقة الجيران .. لكن قوة خفية جذبتنى برغمى الى هناك ، فلم أكد ابلغ سور الحديقة حتى لمحت «زينايدا» ! .. لكنها كانت

وحيدة هذه المرة ، تتمشى على مهل وقد امسكت فى يدها كتابا تقرأه .. حتى اقتربت منى ومرت بمحاذاتى ، بغير ان تلحظنى ، فآثرت أن ادعها وشأنها .. **لكنى للحال شعرت فجأة بحافز قوى يدفعنى الى ان اسعل متعمدا ، كى انبهها الى وجودى ، ففعلت .. واذ ذاك استدارت بوجهها من غير ان تقف ، وأزاحت بيدها شريط قبعتها العريضة عن عينيها ، ونظرت الى ، ثم ابتسمت ابتسامة باردة .. وعادت الى مطالعة الكتاب !**

وكنت قد شرعت فى رفع قبعتى تحية لها ، فجمدت يدى .. واستأنفت سيرى بخطى بطيئة وقلب ثقيل ، وانا أهمس لنفسى : «من اكون انا بالنسبة لها ؟» .. وبعد لحظة سمعت خلفى خطوات مألوفة ، فاستدرت .. واذا أبى مقبل ..

ـ أهذه هى الاميرة الشابة ؟

ـ نعم ..

ـ أو تعرفها ؟

ـ رأيتها هذا الصباح عند امها ..

فتوقف أبى ، وعاد أدراجه .. حتى حاذى الفتاة ، فانحنى لها محييا .. فردت له الانحناءة وقد أسفرت الدهشة فى عينيها ، وكفت عن القراءة .. ثم تبعته ببصرها برهة وهو يبتعد .. فلحقت بها بدورى ، لكنها لم تعبأ حتى بالنظر الى ، وانما رفعت كتابها الى عينيها مرة أخرى واستأنفت القراءة !

— ٥ —

قضيت تلك الليلة ـ وطيلة اليوم التالى ـ فى شبه ذهول ، احاول استذكار بعض علومى فلا اعى منها شيئا ، فقد كانت الحروف المطبوعة تمر امامى مجردة من كل معنى !.. واذكر انى قرأت هذه العبارة اكثر من عشر مرات : «كان يوليوس

قيصر يمتاز بشجاعته الفائقة الشبيهة بشجاعة الجندى المحارب فى ميدان القتال» لكنى لم افهم منها حرفا ، فألقيت الكتاب جانبا !.. وقبيل موعد الغداء صففت شعرى وارتديت سترتى الانيقة ورباط رقبتى الجديد ، فسألتنى أمى : «علام كل هذا ؟.. انك لم تدخل الجامعة بعد . ومن يدرى هل تنجح فى الامتحان ام لا ..» فأجبتها فى اكتئاب : «لبست هكذا من أجل الضيوف القادمين» .. فقالت ساخرة : «يا لهم من ضيوف ممتازين .. كفى هراء !» .. فاضطررت لابدال سترتى ، ولكنى احتفظت برباط الرقبة !

وجاءت الاميرة وابنتها بعد قليل .. فجلسنا حول المائدة ، وجاءت جلسة أبى الى جوار «زينايدا» فجعل يحدثها ويحييها بظرفه ولباقته ، واعجبتنى لهجتها فى نطق الفرنسية .. اما أمى فلم تعجب بالام ولا بالابنة ، وقالت عن الاخيرة : انها فتاة مغرورة ، بلا مبرر !.. وبعد الغداء بقليل انصرفت الضيفتان ، فرافق أبى الاميرة حتى الباب الخارجى .. وحين مرت بى «زينايدا» مسرعة همست لى بلهجتها الرقيقة : «تعال لزيارتنا فى الثامنة ، أتسمع ؟.. لا تنس» .. وادهشنى تقلبها وأطوارها ، فان معاملتها الجافة لى خلال الغداء كانت قد سحقتنى وأيأستنى .. ولكن هاهى تغير خطتها معى على حين غرة !

— ٦ —

◆ **وفى** الثامنة تماما عبرت باب حديقة الجيران ، وانا فى أزهى ثيابى .. وكانت تنبعث من الداخل اصوات مرحة ، فلم اكد أدخل الردهة حتى تراجعت مدهوشا . كانت الفتاة واقفة فوق كرسى فى وسط المكان ، ممسكة بيدها قبعة رجل ، وحولها «نصف دستة» من الرجال يحاولون لمس القبعة بأيديهم ،

عبثا .. ولم تكد ترانى حتى صاحت : «انتظروا ، انتظروا .. ها هو ذا ضيف آخر ، لابد له من تذكرة ايضا» ثم قفزت من الكرسى الى الارض واقتادتنى الى وسطهم قائلة : «ايها السادة ، دعونى اعرفكم بمسيو فولدمار ، ابن جيراننا .. وهؤلاء هم : الكونت مالفسكى ، دكتور لوشين ، الشاعر ميدانوف ، الضابط المتقاعد نيرماتسكى ، وضابط «الهوسار» بايلفزروف .. فلعلكم تصيرون اصدقاء »

أما أنا فكنت فى حالة من الارتباك أنستنى حتى ان انحنى لواحد منهم ، بينما استطردت زينايدا قائلة : «اكتب تذكرة لمسيو فولدمار ياكونت» .. فسرت همسة احتجاج بين الحاضرين ، لكن الفتاة أصرت على طلبها ، فلباه الكونت مرغما .. ثم شرح «لوشين» الامر لى بلهجة ساخرة : **«نحن نلعب لعبة يانصيب ، ومن يلتقط النمرة الرابحة من القبعة يحظى بشرف تقبيل يد الاميرة زينايدا . أفهمت يا فتى ؟»**

لكن «الفتى» وقف حائرا صامتا ، بينما قفزت الفتاة فوق الكرسى من جديد وشرعت تهز القبعة بما فيها فوق رؤوسنا ، وكل منا يمد يده نحوها فيأخذ نصيبه .. وكنت آخرهم فى الحصول على ورقتى ، لكنى لم أكد افضها حتى .. يا الهى ، ترى كيف كان منظرى حين قرأت فيها كلمة «قبلة» ؟! .. كل ما اذكره انى صحت باعلى صوتى : «قبلة !» .. فصاحت الاميرة فى اثرى : «برافو ، لقد ربحتها .. كم انا مسرورة بذلك» وهبطت من الكرسى وهى ترمقنى بنظرة عذبة أدارت رأسى ، ثم سألتنى : «هل انت مسرور بالنتيجة؟» .. فقلت فى حشرجة وغباء : «أنا ؟» .. **وفى تلك اللحظة سمعت احدهم يهمس لى : «بعنى نمرتك الرابحة ، انى ادفع لك فيها مائة روبية !» .. فلم اجبه الا بنظرة احتقار بالغة جعلت الفتاة تصفق بيديها شامتة ..** ثم جاءت مرحلة «التنفيذ» فطلب

منى لوشين ان اجثو على احدى ركبتى ، ووقفت زينايدا امامى مادة يدها الى فى وقار .. ومرت امام عينى سحابة ، لكنى تمالكت نفسى فضغطت شفتى على اصابعها بنهم الى حد أن طرف ظفرها خدشنى !.. فصاح لوشين وهو يعيننى على النهوض : «لقد اتقنتها ...»

ثم ابتكرت الجماعة العابا مسلية مختلفة ، سادها الهرج والمرح والضحك الصاخب ، حتى لقد دار رأسى وكأنى ثملت بخمر مجهولة ، فجعلت أضحك واتصايح وقد أحسست بسعادة لا توصف .. وطيلة الوقت حبتنى زينايدا بالكثير من عطفها ومحاباتها ، واجلستنى بجوارها .. وفى احدى اللعبات كان على ان أجلس معها تحت ملاءة كبيرة سوداء شبه شفافة ، تغطى كلينا تماما ، كى اهمس لها «بكلمة السر» فى اللعبة .. **ولن أنسى التصاق رأسينا فى الظلام ، وبريق عينيها الناعم فى العتمة ، والانفاس الساخنة التى لفحتنى من شفتيها ، ولمعة اسنانها اللؤلؤية ، ودغدغة شعرها المرسل التى اشعلت النار فى بدنى !.. لكنى لبثت صامتا ، فنظرت الى وابتسمت ابتسامتها الغامضة الماكرة ، ثم همست فى اذنى اخيرا : «ماذا بك ؟» .. فأحسست بالدم يصعد الى وجهى ، وضحكت ضحكة هستيرية وانا التقط انفاسى اللاهثة ، مشيحا عنها !**

واستأنفنا العابنا .. يا الهى ، اى شىء لم نفعله فى تلك الليلة ! لعبنا على البيان ، ورقصنا ، وغنينا ، ومثلنا «معسكر الغجر» ، وقلدنا الدببة ، واشتركنا فى أعجب الحيل وخدع «الكوتشينة» ، ثم انشد لنا «ميدانوف» بعض اشعاره الجميلة ، والبسنا الخادم ثوب امرأة ، ولبست الاميرة ثياب رجل .. الخ

واخيرا تعبنا وانهكنا الصخب ، فاعد لنا العشاء ، حوالى منتصف الليل .. وبعد ان اكلنا وشربنا تفرقنا ، فغادرت

المنزل اخيرا وقد ارهقتني سعادتي ، وفيما انا اصافح زينايدا مودعا ضغطت على يدى بحرارة وابتسمت لى .. ابتسامتها الغـــامضة !

كان هواء الليل حين خرجت ثقيلا رطبا وهو يلطم وجهى الساخن ، وقد بدت فى الجو تباشير عاصفة تتجمع ، وتسوق امامها على اديم السماء قطيعا من السحب السود تضطرب وترتعش فوق هامات الاشجار القاتمة من بعيد ، وهزيم الرعد الغاضب يدمدم عند الافق .. فاخذت طريقى الى غرفتى من السلم الخلفى ، وكان خادمى الخاص مضطجعا داخل الباب، فخطوت فوقه متلصصا .. لكنه استيقظ ورآنى ، فانبأنى ان امى غضبت لتأخرى وارادت ان ترسل فى أستدعائى لولا أن ابى نهاها عن ذلك !

وفى غرفتى جلست على مقعد ، مخدر الاعصاب ، لا افكر في ان اخلع ثيابى او انام ، وانما أستمرىء لذة احساسى الجديد العذب ، واضحك فى نفسى بين الحين والآخر كلما تذكرت نادرة حدثت خلال السهرة .. او احس ببرودة فى اطرافى كلمـــا فكرت فى اننى «احب» ، وان هذا هو الحب !.. فيطفو وجه زينايدا امامى ببطء من الظلام ، وجهـــها بنفس الابتسامة الغامضة على الشفتين ، ونفس النظرة المتسائلة الحالمة الرقيقة من العينين !.. واخيرا نهضت من المقعد فمشيت الى فراشى وتمددت عليه ، بثيابى ، ثم ارحت رأسى على الوسادة فى رفق، كأنما خشيت ان افعلها بحركة عنيفة تبدد الاطياف التى تملأه .. لكنى لم اغمض عينى ، وانما لبثت ارقب وميض البرق فى الخارج ، وكتلة الحدائق العامة السوداء ، وواجهات المبانى الصفراء .. حتى اطل الفجر من الافق وانتثرت فى الجو رقع السحاب الاحمر .. فشعرت بالتعب والنعاس ، وصورة زينايدا تطفو امام عينى .. حتى أغفيت !

اواه ايتها المشاعر العذبة والنفحات المباركة التى تعمر القلب حين يختلج باولى انفعالات الحب .. اين انت ؟ .. اين انـــت ؟

— ٧ —

◆ وفى الصباح ، حين جلست الى مائدة الافطار ابنتنى امى بشدة ، وطلبت منى أن اقص عليها كيف قضيت الليلة السابقة .. فأجبتها فى بضع كلمات بعد ان حذفت اكثـر التفصيلات ، وخلعت على كل ما رويته طابع البراءة التامة .. وبرغم ذلك فقد قالت معقبة : «على أى حال لا احب لك أن تخالط هؤلاء الناس ، ثم امامك دروسك وامتحاناتك التـى يجب ان توليها كل التفاتك ..»

لكنى لم اكد افرغ من الافطار حتى اخذنى ابى مـن ذراعى ومضينا الى الحديقة ، وهناك اجبرنى أن اصارحه بكل ما رأيت فى بيت آل زازيكين ، مستغلا احترامى وحبى بل صداقتى له .. فأفضيت له بكافة التفصيلات ، واصغى هو الى بمزيج من الانتباه وعدم المبالاة ، وهو جالس على أحد مقاعد الحديقة يرسم بعصاه على الرمل اشكالا ورسوما مختلفة ، يضحك احيانا ، او ينظر الى بامعان ، أو يسألنى سؤالا قصيرا .. وفى البداية لم اجرؤ على ان انطق امامه باسم زينايدا ، لكنى لم استطع ان اقمع ميلى الى اطرائها ، فضحك والدى طويلا ، ثم بدا كمن يمعن الفكر .. واخيرا نهض ومضى عنى ، ثم اختفى عند الباب الخارجى ، لكنى لمحت قبعته تتـحرك بحذاء السور .. حتى اختفت بدورها داخل حديقة الجيران !

قضى ابى نحو ساعة فى بيت آل زازيكين ، ثم خرج فمضى مباشرة الى المدينة ، ولم يعد الا فى المساء !.. أما أنا فذهبت الى بيت زينايدا بعد الغداء ، فلم تكد الاميرة العجوز ترانى حتى

طلبت منى أن أنسخ لها عريضة أعطتنى مسودتها ، فجلست ألبى رغبتها ٠٠ وكان باب الغرفة المجاورة قد فتح أثناء ذلك ، فرأيت منه وجه زينايدا شاحبا ، وشعرها مرسلا على كتفيها فى اهمال واضح ، ونظرت الفتاة الى بعينيها الواسعتين لحظة ، ثم ٠٠ أغلقت الباب فى وجهى برفق !٠٠ ونادت الام مرارا : « زينا ٠٠ زينا » لكنها لم تتلق ردا ٠٠ فأخذت العريضة معى الى البيت وعكفت طيلة الليل على نسخها ٠٠

- ٨ -

◆ **ومنذ** ذلك اليوم شعرت اننى لم أعد طفلا ٠٠ فكان يوم بداية حبى وبداية آلامى !٠٠ لم أعد أطيق البعد عن زينايدا ، صرت أقضى أيامى وليالى أفكر فيها تفكيرا مضنيا ٠٠ وتملكتنى الغيرة ، اذ شعرت بضآلتى فى نظرها ، لكن قوة خفية كانت تجذبنى دائما اليها ، فأنتفض فرحا وانا اعبر باب غرفتها !

وأدركت زينايدا اننى قد تدلهت فى حبها ، فجعلت من عاطفتى لعبتها ، وعذبتنى بلا رحمة ٠٠ مارست معى تلك اللذة القاسية التي يستمرئها الانسان حين يشعر أنه قد صار - بالنسبة لشخص آخر - المنبع الوحيد لفرحه الطاغى وألمه المميت !٠٠ صرت كالشمع بين يديها ، لكنى لم أكن الوحيد الذى أحبها ، فان كل الرجال الذين كانوا يترددون على البيت شغفوا بها شغفا جنونيا ، ولكن خاسرا ٠٠ فقد احتفظت بهم جميعا عند قدميها ٠ كانت تسليتها الكبرى أن تستثير آمالهم ، ثم مخاوفهم ٠٠ وأن تضرب رؤوسهم بعضها بالبعض الآخر ، من غير أن يخطر ببالهم أن يتمردوا أو يقاوموا !٠٠ وكانت عواطفها ومشاعرها المتناقضة تتعاقب على شفتيها وعينيها بسرعة وسهولة كما تتعاقب ظلال السحب فى صفحة السماء فى يوم عاصف ، فكان وجهها يعبر عن السخرية ، والاستغراق

فى الاحلام ، والهوى المشتعل ، فى آن واحد تقريبا ، أو فى لحظات متلاحقة خاطفة ٠٠!

وكان كل رجل من عشاقها ضروريا بالنسبة لها ٠ كان بايلفزروف «حيوانها المتوحش» الذى يقذف بنفسه فى النار طائعا مختارا من أجلها ٠٠ و « ميدانوف » شاعرها المفضل الذى ينشدها قصائد غزله الحارة فى حماسة دافقة ، فيستجيب « للانسجة » الشاعرية فى طبيعتها !٠٠ و « لوشين » طبيبها الساخر الذى يفهمها أكثر من سواه ، ويحبها أكثر من سواه ، فتحترمه بالرغم منها ، وان لم تعدم أوقاتا ومناسبات تمارس معه فيها لذتها الخبيثة فى اشعاره بانه هو بدوره تحت رحمتها! ٠٠ أما الكونت «مالفسكى» فقد عجزت عن فهم مدى العلاقة بينه وبين زينايدا ٠ لكن دمى كان يفور ويغلى فى عروقى كلما رأيته يقترب منها فى نعومة الثعلب فيتكىء على ظهر مقعدها ثم يهمس فى أذنيها بكلماته المعسولة وهو يبتسم ابتسامته المثيرة ، بينما تعقد هى ذراعيها على صدرها وتصغى اليه ، ثم تبتسم وتهز رأسها ٠٠!

وذات يوم جرؤت فسألتها : « ماذا يغريك باستقبال الكونت مالفسكى فى بيتك ؟ » فأجابتنى ساخرة : « شاربه الجذاب » ! ثم استطردت جادة : « هل تحسبنى مولعة به ؟٠٠ اننى لا أستطيع ان أولع برجل أدنى منى فى المرتبة ، بحيث أنظر اليه من عل ٠٠ وانما أشترط فى رجلى أن يستطيع السيطرة على ، وان كنت آمل ألا أعثر على ضالتى قط ، فلست أريد الوقوع فى براثن انسان ما ، بأى ثمن ! »

— أنت اذن لاتؤمنين بالحب ؟

— أو لست أحبك أنت ؟

قالتها ولطمتنى مداعبة بطرف قفازها على أنفى ٠٠

نعم ، لقد جعلت « زينايدا » منى ملهاتها ٠٠ ظللت ثلاثة أسابيع أراها كل يوم ، فرأيت منها عجبا !٠٠ ولم تكن تأتى

الى بيتنا الا نادرا ، فحمدت لها ذلك ، ففى بيتنا كانت تصطنع الوقار والاتزان ٠٠ وبرغم ذلك لم ترض أمى عنها ، بل ظلت ترقبها واياى بعين لا تغفل ٠ أما أبى فلم أكن أحسب حسابه كثيرا ، فقد كان يتركنى وشأنى ٠٠ وهكذا طلقت كتبى ودراساتى ، بل طلقت نزهاتى الخلوية ورياضتى المحببة : ركوب الخيل. صرت كالحشرة المربوطة من ساقها، ادور وأدور حول محور واحد ، هو بيت زينايدا ٠ وأحيانا كنت أتسلق حائطا مهدما يشرف على حديقتنا ، فأجلس فوقه ساعات أحدق فى الفضاء ، ولا أرى شيئا .. يغمرنى احساس عجيب ، سخى بالعواطف والانفعالات : بالكآبة ، والبهجة ، والتفكير فى المستقبل ، وحب الحياة ، والخوف من الحياة !

واستمرت زينايدا تلعب معى لعبة القط والفأر ! كانت تغازلنى وتتودد الى حتى تثور عواطفى ومشاعرى ٠٠ وفجأة تتنكر لى فلا أجرؤ على أن أقترب منها ، أو حتى أنظر اليها !

٠٠ وأذكر اننى لمست منها برودا دام عدة أيام ، حتى تحطمت أعصابى ٠٠ وذات يوم كنت أتمشى فى الحديقة بجوار السور الفاصل بيننا ، فرأيت زينايدا جالسة فوق الحشائش متكئة بمرفقيها على الارض ، بلا حراك ٠٠ وفجأة رفعت رأسها ورأتنى، فأومأت الى برأسها ايماءة آمرة لم أفهم قصدها منها ، فتريثت حائرا ٠٠ حتى كررت اشارتها ، فقفزت فوق السور وعدوت نحوها فرحا ٠٠ واذا هيئتها تصدمنى ٠ كانت شاحبة شحوبا مخيفا ، يبدو على وجهها الالم الدفين والعذاب المر ، فسألتها وقد انفطر قلبى : « ماذا بك ؟ » ٠٠ فمدت يدها واقتلعت بضعة أعشاب من الارض عضتها بأسنانها فى عصبية ثم ألقتها بعيدا ٠٠ وأخيرا خرجت عن صمتها فسألتنى : « أنت تحبنى كثيرا ، أليس كذلك ؟ »

لم أجب ٠٠ فما جدوى الجواب ؟٠٠ واذ ذاك أردفت وهى

ترمقني بنظرة فاحصة « بلى! » ٠٠ ثم شرد فكرها برهة ، وأخفت وجهها بين يديها ، وعادت تقول هامسة : « كل شيء صار يضايقني . كان خير لى ان اذهب الى أبعد اقطار الارض، من ان أقاسي هذا ٠ لم أعد أحتمل ٠ لم يعد فى طوقى التغلب على همى ٠٠ انني ضائعة ، يا الهى انني ضائعة ٠٠! »

فألحفت فى السؤال : « لماذا ٠٠ ماذا جرى ؟ »

لكنها لم تجب ، وانما اكتفت بهز كتفيها ٠٠ فظللت أحدق فيها والكآبة تعصر قلبي ٠ لقد فطرته كلماتها ٠٠ ولكم تمنيت فى تلك اللحظة أن أضحى بحياتى لو كانت فى ذلك منجاتها من شجنها ! ؟

وكان الهواء يهمس لاوراق الشجر ، ويؤرجح الاغصان فوق رأس زينايدا ٠٠ وهديل الحمائم وطنين النحل يملآن الآذان ٠٠ والشمس فى علاها تشرق على سماء صافية ٠٠ فاتكأت الفتاة على مرفقها وقالت لى : « اقرأ لى شيئا من الشعر ، فأنا أحب طريقتك في انشاده ٠٠ ولكن اجلس أولا »

جلست ٠٠ ثم قرأت عليها قصيدة « فوق تلال جورجيا » ٠٠ فأوقفتني عند بيت أعجبها وجعلت تكرر نصه ساهمة ، كأنما تحدث به نفسها : « لن يستطيع القلب أن يختار غير الحب » ٠٠ وفجأة نهضت واقفة وقالت لى : « هيا بنا ، فان « ميدانوف » فى الداخل مع ماما ٠٠ لقد نظم لى قصيدة ٠٠ وهجرته ٠٠ ولابد أن ذلك جرح احساسه ٠ ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل ٠ انك ستفهم هذه المواقف يوما ٠٠ فلا تغضب منى ! »

ثم ضغطت يدى على عجل ومضت تعدو صوب البيت ، وأنا خلفها .. وهناك تلا علينا ميدانوف أحدث قصائده التى نشرت ، فلم أفهمها . كان يقرأ شعره بصوت كالجرس ، لكنى لم اسمع الا ضجيجا !.. كنت منهمكا فى مراقبة زينايدا ومحاولة

استخلاص مغزى كلماتها الاخيرة ٠٠ وأفقت على صوت الشاعر يتلو هذا البيت : « لعل غريما مجهولا قد فاجأك وسيطر على قلبك ! » ٠٠ وفى هذه اللحظة التقت عيناى وعينا زينايدا ، فأطرقت الى أسفل وتضرجت وجنتاها ٠٠ واذ ذاك انتابنى لون من الرعب أثلج اطرافى .. **لقد ذقت طعم الغيرة عليها من قبل ، ولكن فى تلك اللحظة فقط ومض فى رأسى احتمال ان تكون قد وقعت فى شراك الحب ٠٠ فهمست لنفسى فى انزعاج : « يا الهى ٠٠ انها عاشقة ! »**

- ٩ -

◆ **ومنذ** تلك الساعة بدأ عذابى الحقيقى . أرهقت ذاكرتى وذهنى ، وقلبت الامر على وجوهه ، محاولا الاهتداء الى اسم معشوقها المحظوظ ، ولكن عبثا ٠٠ ففرضت عليها رقابة صارمة فى الخفاء ، وهدتنى رقابتى الى مدى التغير الذى طرأ على الفتاة ٠ بدأت تخرج للمشى وحدها ، مسافات طويلة ٠٠ وأحيانا كانت تمتنع عن مقابلة الزائرين ، وتلوذ بغرفتها لا تبرحها ٠٠ فجعلت أستعرض المعجبين بها واحدا بعد واحد ، سائلا نفسى : « ترى هل هو هذا ، أم هو ذاك ؟ » وانتهيت من تفكيرى الى ترجيح أن يكون غريمى هو آلكونت ماليفسكى ، وان كنت قد خجلت من أن أفاتح زينايدا فى أمره ٠٠

ولم تكشف لى رقابتى عن أبعد من أنفى ، على انها انكشفت للبعض ، وفى مقدمتهم الدكتور لوشين ، لكنه لم يحدثنى فى الامر ٠٠ وكان هو قد تبدلت أطواره أيضا ، فنحل جسمه ، وصارت ضحكته جوفاء قصيرة ، وصار يثور لاتفه سبب ، بل انه كف حتى عن سخريته اللاذعة المعتادة ٠٠

وذات يوم جمعتناغرفة فى بيت زينايدا ، هو وأنا وحدنا ، فقال لى : « أراك تكثر من التردد على هذا البيت أيها الفتى ،

أليست عليك واجبات مدرسية تحضرها ؟ » .. فأجبته في شيء من الجفاء : « ومن أدراك انني لاأنجزها في بيتي ؟ »

ـ على أية حال لست ألومك على ماتفعل ، فانه شيء طبيعي ومألوف في مثل سنك .. لكنك سيىء الحظ في اختيارك . ألا تعرف حقيقة هذا البيت ؟

ـ لست أفهم قصدك ..

ـ هذا أمر يؤسف له أيضا . لكنني أجد من واجبي أن أحذرك ، فاصغ الي يا فتى . **ان العزاب القدامى ، مثلي، يستطيعون التردد على هذا البيت من غير أن يصيبهم أذى ، فقد تبلدت قلوبنا ، وما من شيء يؤثر فيها .. أما أنت فقلبك مايزال فجا ، وهذا الجو يؤذيك ، صدقني ..**

ـ كيف ؟

ـ ماذا .. هل أنت في خير حال الآن ، هل أنت طبيعي .. وهل ماتحس به في صالحك ؟

ـ ماهو هذا الذي أحس به ؟

ـ آه يافتي ، ماجدوى الانكار والمراوغة ووجهك يظهر مايبطن قلبك ؟.. ولكن مافائدة الكلام ؟.. أنا نفسي ماكان لي أن أدخل هذا البيت ، لولا .. لولا اني مخلوق غريب الاطوار ! .. والذي يدهشني حقا أن شابا في مثل ذكائك لايدرك مايدور حوله ..

ـ وماذا يدور حولي ؟

ـ كأنما انت تجهله .. دعني اذن اقوله لك . صدقني ان « الجو » هنا لايناسبك .. قد يكون الهواء معطرا ، لكنه خانق ! .. نعم ، خذ نصيحتي وعد الى دروسك ..

وهنا أقبلت الاميرة العجوز ، وبدأت تشكو للطبيب ألم أسنانها .. ثم ظهرت في أثرها زينايدا !.. فقالت الام : « على فكرة ، يجب أن تؤنبها يالوشين ، انها تشرب ماء مثلوجا طيلة

اليوم ، فهل هذا يناسب صحتها ، مع ماتعلمه عن ضعف صدرها ؟ »

ـ لماذا تفعلين ذلك يافتاتى ؟

ـ وماذا فيه ياطبيبى ؟

ـ قد تصابين ببرد وتموتين !

ـ ليت ذلك يحدث حقا ..

ـ يالها من فكرة بارعة !

ـ ولم لا ، هل الحياة تساوى كل هذا العناء ؟

ـ انك كعهدى بك دائما ، تتلخص طبيعتك فى كلمتين : نزوات ، وعدم شعور بالمسئولية !

ـ فليكن .. وأنت يامسيو فولدمار ، لا تنظر الى هكذا ، لست أحتمل أن يرثى الناس لحالى ..

ثم خرجت لتوها من الغرفة ، فالتفت الى لوشين وقال : « دعنى أقول لك مرة أخرى يافتى .. انه جو لايصلح لك ! »

- ١٠ -

◆ **وفى** مساء اليوم نفسه اجتمع أصدقاء زينايدا فى بيتها كالعادة ، ودار النقاش حول قصيدة « ميدانوف » ، فأبدت الفتاة اعجابها البالغ بها ، ثم قالت معقبة : « ولكن .. أتعلم ماذا كنت أفعل لو كنت شاعرة ؟.. كنت أختار موضوعات أخرى لقصائدى .. فأصف مثلا جماعة من الفتيات فى قارب يسبح بهن فوق مياه نهر ساكن ، والقمر فى أوجه ، وكلهن يرتدين ثيابا بيضاء ويحلين صدورهن بأزهار ضاحكة ، ويغنين أعذب الاغانى .. حتى يصلن الى الشاطىء فتستقبلهن فرقة من الراقصات بالمشاعل والغناء والضحكات .. ولكن .. ان صدرى منقبض، فدعونا نتسلى بمسابقة «التشبيهات» (ومن مقتضاها أن يقترح أحدهم موضوعا ما ، فيتسابق الجميع فى مقارنته

بشىء يشبهه ، والفائز هو صاحب أبرع وأدق تشبيه !)

واتجهت زينايدا الى النافذة ، وكانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، وقد انتشرت فى الجو رقع من السحاب الاحمر ، فقالت الفتاة : « ماذا تشبه هذه السحب ؟ » وقبل أن يفكر الباقون فى جواب استطردت هى مجيبة : « أعتقد أنها تشبه الاشرعة القرمزية التى كانت تسير سفينة «كليوباترة» الذهبية حين أبحرت بها لتقابل حبيبها أنطونى •• أتذكر ياميدانوف يوم رويت لى قصتها ؟ »

وأجمعت كلمتنا على أن أحدا منا لم يكن يستطيع أن يهتدى الى تشبيه أروع من هذا ، فعادت زينايدا تتساءل : «وكم كان عمر أنطونى اذ ذاك ؟ » •• فقال مالفسكى : « كان شابا بلا شك » وأيده ميدانوف قائلا : « نعم كان فى أوج شبابه » •• وهنا تدخل لوشين مصححا : « **كلا أيها السادة ، بل كان قد جاوز الاربعين ! »**

« جاوز الاربعين ؟ » رددت زينايدا عبارته فى شرود ••

وبعد قليل انفض الجمع ، فعدت الى بيتى وشفتاى تردد ان بلا وعى : « انها عاشقة •• ولكن لمن ؟ »

- ١١ -

◆ **ومرت** الايام •• وازدادت أطوار زينايدا غرابة وشذوذا •• وذات يوم ذهبت للقائها ، فوجدتها جالسة فوق مقعد ومتكئة برأسها على منضدة •• فلما أحست بدخولى رفعت وجهها ، واذا هو قد تندى كله بالدموع ، لكنها اغتصبت ابتسامة ، وقالت لى : « أهو أنت ؟•• تعال » •• فاقتربت منها ، واذ ذاك وضعت يدها على رأسى ، وفجأة جذبت شعرى بشدة ، حتى صحت برغمى : « انك تؤلميننى » •• فقالت شامتة : « آه ، وهل لايوجد مايؤلمنى أنا ؟ » •• ثم صاحت نادمة وقد تبينت

أنها انتزعت فعلا بعض شعرات من رأسى : « أواه ، ماذا فعلت بك يافولدمار يامسكين ؟ » •• ولفت الشعرات على أصابعها بانتظام ثم قالت والدموع تلمع فى عينيها : « سوف أضع هذا التذكار من شعرك فى أيقونة ألبسها فى رقبتى •• فلعل هذا يعزيك بعض الشىء •• والآن ، وداعا ! »

وتركتنى ، فعدت أدراجى الى البيت •• وهناك وجدت أمى تعنف أبى بشدة من أجل شىء لم أعرفه ، بينما ظل هو كعادته هادئا صامتا لايجيبها بكلمة ، ثم تركها ومضى • وبعد خروجه أنبتنى على زياراتى المتكررة لبيت الاميرة « القديرة على كل شىء » كما وصفتها •• فقبلت يدها كى أنهى الموقف ولذت بغرفتى •• لكنى لبثت عاجزا عن التفكير • كانت دموع زينايدا قد فطرت قلبى ، حتى لقد أحسست بميل الى البكاء •• ولم لاأبكى ، ألست طفلا ، فى السادسة عشرة ؟؟

وذات يوم ••

وانا فى جلستى المعتادة فوق الحائط ، أو «برج المراقبة»، الذى يشرف على حديقة الاميرة ، احدق فى الفضاء وأنصت الى أجراس الدير القريب ، انتابنى ذلك الاحساس الغامض بوجود شخص بالقرب منى ، فنظرت الى أسفل • كانت زينايدا فى ثوبها الرمادى البسيط تمرق فى الممر الذى تحتى ، فلما رأتنى توقفت ورفعت طرف القبعة «القش» العريضة التى ترتديها ثم نظرت الى بعينيها المكسوتين بالقطيفة : « ماذا بربك تفعل فى علاك ؟•• هيا •• انك دائما تصارحنى بحبك ، فاذا كنت صادقا فاقفز من مكانك الى ! » •• وقبل أن يضيع صدى كلماتها كنت أطير فى الهواء اليها ، كأن يدا قوية دفعتنى من الخلف •• وكان ارتفاع الحائط أربعة عشر قدما ، فلم أكد ألمس الارض بقدمى حتى سقطت عند قدميها فاقد الوعى •• وحين عدت لوعيى ، وقبل أن أفتح عينى ، شعرت بزينايدا منحنية

فوقى ، تقول فى صوت تبين فيه الرقة ، والانزعاج : « طفلى العزيز ، كيف فعلتها •• كيف أطعتنى •• أنت تعلم كم أحبك •• هيا وانهض »

وكان صدرها لصق صدرى ، ويداها تحتضنان رأسى •• وفجأة بدأت شفتاها الناعمتان الغضتان تغطيان وجهى بالقبل •• ثم انطبقتا على شفتى •• ولعل الفتاة أدركت فى تلك اللحظة ، من تعبير وجهى ، برغم بقائى مغمض العينين ، انى قد أفقت من اغمائى •• فنهضت واقفة وهى تقول : « هيا ، انهض أيها الفتى العابث •• لماذا ترقد هكذا فوق التراب ؟ »

•• فوقفت على قدمى ، بينما استطردت هى : « لاتنظر الى هكذا •• ياللعبث ، انك لم تصب بسوء •• فامض الى بيتك واغسل وجهك .. واياك ان تتبعنى ، والا غضبت منك و .. »

ولم تتم جملتها ، بل مضت فى طريقها .. فجلست على الرصيف ارقبها ببصر شارد !

— ١٢ —

في اليوم التالى صحوت مبكرا ، وكان الطقس جميلا منعشا ، فخرجت ارتاض فى ضواحى المدينة . تسكعت طويلا فوق التلال وخلال الغابات ، ثم اضطجعت فوق الحشائش ، وشردت .. استعدت فى خيالى حادث الامس ، وكلمات زينايدا التى لا تنسى ، وقبلاتها ! لكن أعذب ما جال بخاطرى ان الفتاة لن تستطيع بعد الآن ان تنكر شجاعتى ، بل بطولتى .. وهمست لنفسى : «انها قد تفضل سواى ، لكن سواى يكتفى بالقول انه «سوف» يفعل من أجلها كذا وكذا ، اما انا فقد فعلت .. وأى شىء اتردد فى ان افعله من اجلها ؟» .. وجمح خيالى فتصورت نفسى انقذها من يد الاعداء ، وانتزعها بالقوة من السجن .. حتى يسيل دمى ، واستشهد عند قدميها !

ثم نهضت على قدمى ، واستأنفت طوافى فى الغابة .. حتى تنبهت الى ان موعد الغداء قد اقترب ، فأردت اختصار المسافة الباقية بالعودة من طريق آخر قصير ، عبر ممر رملى ضيق ، فدلفت اليه .. **لكنى لم أكد أسير فيه خطوات حتى طرق سمعى صوت حوافر جياد آتية من ورائى ، فالتفت ناحيتها بحركة غير ارادية .. واذا أنا أرى جوادين مقبلين جنبا الى جنب ، تبينت فى راكبيهما زينايدا ووالدى .. فاختبأت كى لا يريانى ، وحين مرا بمحاذاتى لحظت على وجه الفتاة شحوبا شديدا !**

وضاعفت من سرعة خطاى حتى بلغت البيت ، فوجدت والدى جالسا بجوار والدتى ـ وقد أبدل ثيابه وغسل وجهه ـ يقرأ لها مقالا فى احدى الصحف بصوته الموسيقى الناعم ، وهى تبدو غير مصغية .. فلما رأتنى سألتنى غاضبة اين قضيت النهار ، وفى صحبة من ؟ .. وكنت على وشك ان أجيبها بانى كنت أتنزه بمفردى ، لكنى وجدت نفسى انظر الى أبى والزم الصمت .. لست ادرى لماذا !

— ١٣ —

◆ **ومضت** خمسة ايام او ستة لم أر فيها زينايدا الا لماما ، فقد كانت مريضة ـ وان كان هذا لم يمنع « فرقة المعجبين » من التردد عليها كل يوم للسؤال عنها ! ـ وفى تلك الفترة لحظت انها بدأت تتجنبنى ، وتضيق بوجودى .. ومع أن مسلكها قد سحقنى واشقانى ، فانى آثرت ان انفذ رغبتها وابتعد عن طريقها ، مكتفيا بمراقبتها من بعيد ، ورصد الشواهد المتعددة على مبلغ التغير الذى طرأ عليها !

وذات صباح التقينا مصادفة فى الحديقة ، فهممت بان ادير لها ظهرى مبتعدا عن طريقها .. لكنها اوقفتنى ، وقالت :

«اعطنى ذراعك .. منذ متى لم نتحدث معا ؟»

واسترقت نظرة اليها . كانت عيناها مفعمتين بضياء ناعم ، ووجهها كأنما يبتسم من خلال ضباب .. فسألتها : «أما زلت متوعكة الصحة ؟» فأجابتنى وهى تقطف وردة حمراء : «كلا ، لقد انتهى كل ذلك ، ولم اعد أشعر بغير قليل من التعب ، سوف يزول ..» فعدت أسألها : «وحين يزول .. هل تعودين كما كنت فى الماضى ؟» .. فرفعت الوردة الى انفها، وانعكس ظلها الاحمر على وجنتيها ، ثم قالت : «وهل تغيرت ؟»

ـ نعم ، تغيرت كثيرا ..

ـ اعلم انى عاملتك اخيرا بشىء من البرود ، ولكن .. لا تفكر فى ذلك ، فانه يحدث بالرغم منى . دعنا من هـذا المـوضوع ..

ـ انت لا تريدين أن أحبك .. هذا هو الواقع !

ـ بل احببنى ، ولكن بطريقة اخرى ..

ـ وكيف ؟

ـ لنكن صديقين .. أصغ الى ، انت تعلم اننى أكبرك فى السن ، بحيث اصلح لان اكون عمتك ـ أو اختك الكبرى على الاقل ـ بينما أنت ..

ـ انا فى نظرك طفل !

ـ نعم ، ولكن طفل عزيز ذكى احبه كثيرا . اتعلم ؟ منذ هذه اللحظة اخلع عليك لقب «فارسى» ! ولا تنس ان الفارس يلازم فى العادة سيدته ، وهاك عربون ودى ..

قالتها ورشقت وردتها الحمراء فى عـروة سترتى .. فقلت مغمغما : «لقد أوليتنى مرة جميلا «أجمل» من هذا ! »

ـ آه ، يا لذاكرتك .. على أى حال انا مستعدة ..

ثم طبعت على «جبينى» قبلة هادئة .. واستدارت مبتعدة وهى تقول : «اتبعنى يا فارسى»

.. وتبعتها !

— ١٤ —

◆ وفى تلك الليلة التأم الجمع فى بيتها كالمعتاد ، وابتكرت هى لعبة السهرة كما جرت العادة ، لكنها لم تكن فى هذه المرة يانصيبا او مسابقة التشبيهات ، وانما كان موضوعها ان يقص كل منا اغرب حلم رآه فى منامه .. وكالعادة كان حلمها هو الفائز ، قالت : « رأيت قصرا فخما ، يمـــوج بالراقصات والراقصين ، فى احدى ليالى الصيف .. وكانت ربة القصر الداعية الى الحفلة ملكة شابة ، والقصر قد تلألأ بالانـــوار ، والذهب ، والمرمر ، والبللور ، والحرير ، والماس ، والازهار ، والعطور ، وكل نزوات الترف .. وكان ضيوف الحفلة كلهم من الشبان المتأنقين الشجعان ، وكلهم متيم بالملكة الشابة متدله فى هواها ، ينظم القصائد فى التشبيب بها ويكيل لهـــا عبارات الغزل والاطراء .. وهى تنصت لغزلهم ، وتصغى للموسيقى ، لكنها لا تعبأ بشخص منهم ، أو يحظى احـــد باعجابها !.. وكانت بالقاعة ست نوافذ عالية تمتد بين الارض والسقف ، مفتوحة كلها على الحديقة المظلمة ، باشجارهـــا الضخمة ، والسماء الصافية بنجومها المضيئة .. فأطلت الملكة منها على نافورة بيضاء فى وسط الحديقة ، يختلط خرير مائها بانغام الموسيقى وضجيج الحاضرين .. ثم خاطبـت مدعويها قائلة : « انتم جميعا ايها السادة نبلاء ، اذكياء ، اثرياء ، تحفون بى ، وتبدون استعدادكم للموت عند قدمى ، ولكن ما حيلتى فى قلبى .. **ان الذى احبه ، ويملكنى فى يمينـــه ، ليس بينكم . انه ينتظرنى فى الخارج ، بجوار النافورة .. وهو لا يملك مالا ولا جاها ، ولا يعرفه أحد ، لكنه ينتظرنى ، واثقا من ذهابى للقائه .. وسأذهب لالقاه ، وما من قـوة تستطيع ان تحول بينى وبينه حين أريد ان أهرع اليه ، وابقى**

معه ، ونضيع معا فى ظلام الحديقة ، تحت همس الاشجار ، وفى ظلال النافورة .. !»

وفرغت زينايدا من سرد حلمها العجيب ، فتناوله الاصدقاء بالتعليق والتفنيد .. حتى انقضت السهرة وقد انتصف الليل ، فتفرقنا كل الى بيته ..

لكنى عبثا حاولت ان أنام فى تلك الليلة . ظللت اتقلب على سعير ، من جنب الى جنب ، ومن خد الى خد ، اقلب قصة زينايدا على شتى وجوهها ، محاولا استخلاص مغزاها ، وانا أهمس لنفسى : «ترى من هو ، رجل النافورة ؟.. واى ثمن لا ادفعه كى أكون ذلك المحظوظ ؟» واشتعل دمى فى عروقى وغلى ، فجعلت اهذى : «الحديقة .. النافورة .. سأخرج الى الحديقة ..»

وخرجت فعلا .. ارتديت ثيابى على عجل وانسللت من البيت . كان الليل حالكا ، والهواء ساكنا ، فمضيت أذرع ممرات الحديقة على غير هدى ، ووقع قدمى يتبعنى ويخيفنى .. ثم وقفت ، وأصخت السمع ، وانتظرت .. فلم اسمع غير دقات قلبى السريعة العالية . **وفجأة خيل لى انى أرى شبح امرأة ، فمددت عينى فى الظلام وحبست انفاسى .. ماذا ، هل اسمع صدى خطوات ، ام نبضات ؟ .. أضحكة مكتومة ، ام حفيف أوراق الشجر ، ام آهة قلب مكلوم ؟.. واحسست بالخوف والرعب ، فناديت بصوت لم أسمعه انا : «من هناك؟» .. وهبت نسمة هواء ، وهوت نجمة من السماء ، فأردت ان اصرخ : «زينايدا» ! لكن الصيحة ماتت على شفتى .. وعاد الصمت والسكون يلفان الكون ، حتى الضفادع كفت عن نقيقها !**

وأخيرا عدت يائسا الى غرفتى ، وفراشى البارد ، لاستأنف عراكى مع نفسى من جديد !

— ١٥ —

◆ **واستيقظت** فى اليوم التالى والكابوس ما يزال يملأ رأسى .. فخرجت اتمشى فى الحدائق ، وصادفت الكونت مالفسكى .. يا للئيم ! لم يكد يرانى حتى قال بخبثه المعهود وسخريته : «اهكذا يترك الفارس مليكته تغيب عن بصره ورقابته .. انك مهمل يا صاح ، والا لما قصرت فى حراسة مولاتك ، نهارا او .. ليلا ! »

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أنسيت الحديقة ، والليل ، والرجل عند النافورة ؟

ثم ضحك وادار ظهره لى .. بعد ان نفذت كلماته الى قلبى كالسم حين يسرى فى العروق ، فاندفع الدم الى رأسى وهمست لنفسى : «اذا كان الامر كذلك .. فويل لمن يقع فى يدى ، سوف اثبت للجميع ، وللخائنة ، اننى استطيع ان انتقم لنفسى !»

وهرعت الى غرفتى ، فأخرجت من احد الادراج سكينا حادة كنت قد اشتريتها حديثا ، وتحسست حدها .. ثم دسستها فى جيبى وقد شعرت بقلبى ينتفض غضبا ، ويرزح تحت ثقل كالحجر !.. وطوال اليوم جعلت اروح واجىء فى البيت ، وانا اتحسس بيدى السكين التى فى جيبى ، كمن يتهيأ لحدث رهيب ..

وشغلتنى هذه المشاعر والانفعالات عن كل ما عداها ، حتى عن التفكير فى زينايدا نفسها .. ولحظت أمى انشغالى ومظهر «البطولة» الذى أتقمصه ، فقالت لى ونحن على مائدة العشاء : «مالك تبدو مهموما شاردا ؟» فأجبتها بابتسامة غامضة وانا اقول لنفسى : «آه لو يعلمون !» .. ودقت الساعة الحادية عشرة ، فمضيت الى غرفتى ، لكنى لم اخلع ثيابى ،

وانما لبثت انتظر منتصف الليل بصبر نافد !

واخيرا دقت الساعة مرة اخرى ، ففركت يدى فى حماس: «لقد حانت الساعة !» وهبطت الى الحديقة .. وكنت قد اخترت اثناء النهار مكان المراقبة الذى اكمن عنده ، وكانت شجرة صنوبر كثيفة بجوار السور ، فاتجهت اليها واسندت ظهرى الى جذعها ، وانتظرت !.. كانت الليلة ساكنة كسابقتها، بل اكثر منها صفاء .. وكانت الدقائق الاولى من فترة الانتظار مملة مرهقة ، فجعلت اتخيل فيها ما سوف افعله واقوله لغريمى : هل اصيح به «قف ، الى اين انت ذاهب ؟ سلم نفسك او اقتلك !» .. أم اغمد السكين فى صدره دون انذار ؟

.. وبدت لى كل حركة بين الاغصان ، وكل صوت ، غير مألوف .. لكن ساعة انقضت بلا جديد ، فبدأ دمى يهدأ ويبرد ، وبدأت اشعر بحماقتى ، وبأن مالفسكى انما هزأ منى ! .. فتركت مكمنى ورحت اجول فى الحديقة . كان السكون شاملا ، وكل الكائنات قد هجعت . حتى كلبنا قد اخلد للنعاس .. فتسلقت اطلال الحائط المهدم وسرحت الطرف فى الفضاء العريض الذى امامى ، وتذكرت لقائى مع زينايدا .. فاستغرقتنى الاحلام !

وفجأة خيل الى انى سمعت صوتا غير عادى ! صوت باب يفتح ثم يغلق ، ثم خطوات خفيفة متلصصة تقترب .. فقفزت من مكانى وقد عاودنى نشاطى ، وكمنت فى ظل الحائط .. «هاهو ذا يظهر .. اخيرا» واستللت السكين من جيبى ، وفتحتها .. ورقص لون الدم امام عينى ، وانتفض شعر رأسى خوفا وغضبا .. والخطوات مقبلة نحوى .. فتحفزت للانقضاض على غريمى ، ومر الرجل بمحاذاتى ..!

يا الهى .. انه ابى !!!

وفى طرفة عين تحول «عطيل» الغيور ، المتأهب للقتل ..

الى تلميذ مدرسة ، خائف ، خجول !.. وألهتبنى حدة المفاجأة عن تتبعه ببصرى ، وسقطت السكين من يدى على الحشائش، فلم اعبأ حتى بالبحث عنها ، من فرط خجلى من نفسى !

وفيما انا عائد الى البيت عرجت على مقعدى المختار بالحديقة ، ورفعت بصرى الى نافذة زينايدا . كانت مفتوحة، والغرفة مظلمة الا من النور الازرق القاتم المنعكس عليها من عتمة الليل .. وعلى حين بغتة أسدلت على النافذة المفتوحة ستارة بيضاء ، حجبت داخلها عن الانظار .. !

«ولكن لماذا .. وما معنى هذا ؟» اخذت اسائل نفسى حين تمددت على فراشى : «أهو حلم ، ام وهم ، ام حقيقة ؟» .. وكانت الفروض التي صعدت مع الدم الى رأسى ، ردا على تساؤلى ، غريبة جديدة على .. بحيث لم اجرؤ على مجرد التفكير فيها !

— ١٦ —

◆ **وصحوت** فى الصباح وبى صداع شديد فى رأسى .. وكانت انفعالات اليوم السابق قد تبخرت ، وحل محلها شعور بالانقباض والكآبة لم أعهده من قبل ، وكأن شيئا فى قد مات نهائيا !.. وعلى مائدة الافطار استقرت نظرة منى على ابى . كان هادئا كعادته .. لكنه لم يتبسط فى الحديث معى ، بل نسى أن يلقى الى تحية الصباح !

وبعد قليل ذهبت للقاء زينايدا ، وفى عزمى ان اصارحها بما رأيت .. لكنى جبنت ! وفى المساء ، بينما كنت منفردا بنفسى فى ركن من الحديقة ، جاءت تبحث عنى .. وسألتنى عن سبب كآبتى ، فانهمرت دموعى فجأة بغزارة ازعجتها ، فألحت على : «ماذا بك يا عزيزى «فولوديا»» ــ وكانت تلك اول مرة تدللنى فيها بهذا الاسم ! ــ ماذا بك .. أجب !»

لكنى لم اجب ، ولم اكف عن البكاء ، فهمت بأن تقبلنى فى وجنتى المبللة ، لولا ان اشحت بوجهى عنها وانا اقول بصوت متقطع خلال نشيجى : «انى اعرف كل شىء ، فلماذا تعبثين بى ؟ »

ــ أنا الملومة حقا .. كم فى من بذور الشر والخطيئة ! .. لكنى لست الهو بك الان ، وانما انا احبك حقا ، لسبب لا يخطر على بالك .. ولكن خبرنى اولا ، ماذا عرفت ؟

ماذا كنت استطيع ان اقوله لها ؟.. وقفت فى مواجهتى ونظرت الى ، وللحال صرت ملك يمينها من رأسى الى قدمى ! .. وبعد ربع ساعة كنت ألعب معها لعبة «الاستغماية» وانا اصيح متهللا كلما أفلحت فى اقتناصها من خصرها .. وكانت دموعى تتساقط بين الحين والاخر ، ولكن من فرط فرحتى !

— ١٧ —

◆ **قد** أجد صعوبة لو حاولت وصف مشاعرى خلال الاسبوع التالى .. فقد قضيته فريسة لنوع من الحمى النفسية ، اختلطت فيها كافة الوان الاحاسيس العنيفة المتناقضة ، والافكار ، والشكوك ، والآمال ، والآلام !.. فعشت أيامى كالمحكوم عليه بالاعدام الذى يريد ان يظفر من الدنيا باقصى ما فيها ، هاربا من ذكرياته ، متجاهلا ماضيه وآتيه ، مستغرقا فى حاضره فقط !.. حتى عدت الى البيت يوما قبيل الغداء ، فقيل لى ان أبى قد خرج بغير ان يتناول طعاما ، وان امى معتكفة فى غرفتها لا تريد ان تأكل شيئا !.. وتبينت على وجوه الخدم تجهما غير عادى ، فسألت اصغرهم ــ وكان يحبنى بصفة خاصة ــ عما حدث .. **فقص على ان أمى قد اشتبكت مع ابى فى نقاش حاد ، اتهمته فيه بخيانتها والوقوع فى هوى الاميرة الشابة ، فدفع التهمة عن نفسه طويلا حتى**

فقد اتزانه اخيرا فاهانها بكلمة جارحة عرض فيها بكبر سنها .. فأجهشت أمي بالبكاء .. ثم أضاف الخادم ان سبب الفضيحة كلها خطاب بغير توقيع استلمته الزوجة .. من مجهـــول !

قابلت النبأ بوجوم ، ثم صرفت الخادم وأويت الى فراشي. لم ابك او استسلم لليأس ، او أسأل كيف ومتى حدث ذلك ، وكيف لم استنتجه من قبل .. بل انى لم الم أبى فى قلبى .. فقد كانت «الفاجعة» بالنسبة لى افدح من ان يجدى فيها شيء من ذلك .. كان معناها النهاية !

وفى اليوم التالى اعلنت امى عزمها على العودة الى المدينة، وبعد ان اختلى ابى بها فترة فى غرفتها بدأت تعد معدات السفر فى هدوء ، وادركت انهما قد اتفقا على عدم اثارة فضيحة علنية . وفى المساء حضرت مشهدا غريبا . رأيت ابى يقتاد الكونت مالفسكى من ذراعه فى الردهة ثم يقول له ، امام كبير الخدم ، ببرود مثير : «منذ بضعة ايام أريتك طريق الباب ، واليوم أرانى مضطرا لان انذرك بانك لو طرقت بابى مرة أخرى فسوف اقذف بك من النافذة .. فلست احب الخط الذى تكتب به خطاباتك !»

اذن فهو الذى ارسل الى امى ذلك االخطاب الذى بغير تو قيـــع ؟!

و تقاذفتنى الخواطر : كيف عرضت الاميرةالشابة سمعتها ومستقبلها للضياع ، وماذا كانت تأمل وهى تعلم أن أبى متزوج وليس حرا ؟.. لكنه الحب ، والتفانى ، والتكريس !

واستقر رأيى على وجوب زيارة زينايدا ، لتوديعها قبل سفرنا .. فانتهزت فرصة مناسبة وقصدت الى بيتها .. واستقبلتنى امها استقبالا فهمت منه انها لم تقف على فضيحة ابنتها ، ثم دخلت زينايدا الغرفة شاحبة الوجه ، ترتدي ثوبا

اسود ، وقد ارسلت شعرها على كتفيها فى اهمال .. وبغير ان تنطق بكلمة قادتنى من يدى الى غرفتها وهناك قالت لى : «لقد سمعت صوتك فسعيت اليك .. أهكذا سهل عليك ان تتركنا يا شقى .. ؟ »

ـ لقد جئت لاودعك يا سمو الاميرة ، ربما الى الابد !

ـ اشكرك .. لكنى ارجو الا تسىء الظن بى فى قلبك .. ربما أكون قد عذبتك أحيانا ، ولكن ثق بانى لست الفتاة المستهترة التى تتصورها !

ـ صدقينى يا زينايدا انك مهما فعلت بى ، فلسوف اظل مقيما على حبك حتى آخر ايامى .. !

فاستدارت الى بحركة سريعة ، فاتحة ذراعيها .. ومنحتنى قبلة عاطفية ملتهبة ، الله يعلم من قصدت بها ، لكنى على أية حال تذوقت عذوبتها كاملة ، عالما انها الاولى والاخيرة ، وانها لن تتكرر قط ! .. ثم انتزعت نفسها منى وخرجت لا تلوى على شىء .. وخرجت انا الى بيتى نهبا لانفعال لا يمكننى وصفه ـ ولا اتمنى ان يعاودنى ـ ولو انى كنت اكون سيىء الحظ لو لم أجربه قط فى حياتى !

ثم عدنا الى موسكو ، فبدأ جرحى يلتئم فى بطء شديد .. فانى لم استطع ان انفض عنى غبار الماضى واعود الى دراستى الا بعد مجهود عنيف . أما شعورى نحو والدى فلم يسؤ عن ذى قبل ، او يطرأ عليه اى تحامل ، او حقد ، او لوم .. بل انه على العكس صار ادنى الى قلبى واحب الى نفسى ! .. وليفسر علماء النفس هذه الظاهرة كما يحلو لهم !

— ١٨ —

◆ **وكان** والدى قد اعتاد بعد عودته الى العاصمة ان يرتاض على ظهر جواده كل يوم .. وذات صباح طلبت منه أن يسمح

لى بمصاحبته على جوادى ، فتردد لحظة ثم قبل .. وخرجنا معا الى ضاحية المدينة ، وحين بلغنا منعطف الطريق المحاذى للنهر ، ترجل عن جواده وطلب منى ان انتظره فى تلك البقعة حتى يعود .. ثم سار على قدميه فى ذلك المنعطف ، حتى اختفى عن ناظرى !

لكن ساعة مرت وهو لم يعد ، وكان قد بدأ يتصاعد من النهر ضباب كثيف .. ثم هطل المطر ، وظل يتزايد ويشتد .. فنفد صبرى ، ولم ار ما يمنع من ان اسير بالجوادين فى الاتجاه الذى انعطف اليه والدى ، فمضيت فى الشارع القصير حتى آخره ، ثم وقفت حائرا .. وفيما انا استدير راجعا حانت منى نظرة الى نافذة مفتوحة فى أحد البيوت الخشبية القائمة قبالتى ، فرأيت ابى متكئا على حافة النافذة وظهره الى الطريق ، يتحدث الى امرأة فى ثوب قاتم جالسة داخل الغرفة ، تكاد تحجبها عن الانظار ستارة بيضاء . ولم تكن المرأة سوى .. زينايدا !

وكانت المفاجأة أعنف من ان تحتملها أعصابى ، فخطر لى فى البداية ان اعود ادراجى مسرعا ، خشية أن يستدير ابى فيرانى .. لكن شعورا غريبا ، اقوى من الفضول ، واقوى من الغيرة ، بل اقوى من الخوف ، سمر قدمى حيث كنت ! فوجدتنى ارقب ما يجرى واشحذ اذنى كى اسمع ما يدور بين الحبيبين ، ولكن بلا جدوى .. كل ما استطعت استنتاجه من حركاتهما ان والدى كان يصر على شىء ما ، وزينايدا تأبى اجابته الى طلبه !.. وكان وجهها الجميل حزينا، يحمل فى آن واحد سمات الهوى ، والاسى ، واليأس .. ثم رأيت ابى يهز كتفيه ويعدل وضع القبعة على رأسه – الحركة التى كانت عنده علامة نفاد صبره ! – وسمعت من كلامه هذه العبارة المبتورة : «يجب ان تقطعى كل صلة لك بـ ....»

ولم يكد ينهي عبارته حتى فعل مالم يكن يخطر ببالى ان يفعله :



رفع السوط الذى فى يده فجأة وهوى بـه على ذراع الفتـاة العارية حتى مرفقـها !.. ولا ادرى كيف استطعت ان اضبط اعصابى فلم تصدر منى صيحة انزعاج مفاجئة !.. اما الفتاة فقد ارتجفت رجفة شديـدة ورمقت ابى بنظرة صامتة ، ثم رفعت ذراعها ببط الى شفتيها فقبلت البقعـة الحمـراء التى خلفها السوط على جلدها !..
بينما كان ابى يلقـى بالسوط بعيدا فى انفعال ويندفع خارجا لا يلوى على شىء ، والفتاة تتبعه الى الباب !

سقط قلبى رعبا وهلعا ، وتدبرت موقفى على عجـل فرأيت ان اعود مسرعا الى حيث تركنى ابى . وهكذا اطلقت للجوادين ولنفسى العنان فعدونا باقصى سرعة حتى بلغت مكانى الاول وانا ألهث ، قبل ان يخرج ابى الى الطريق .. وهناك وقفت انتظره كالذاهل . كنت اعلم ان اتزانه وبرود اعصابه يخذلانه احيانا ويسلمانه للغضب والتهور ، لكنى عجزت عن اقناع نفسى بان ما رأيته قد وقع فعلا .. بل شـعرت اننى ، مهما طالت حياتى ، لن انسى يوما هيئة الفتاة ونظرتها وابتسامتها ، وهى تتلقى جلدة السوط .. فقـد حفرت صورتها تلك فى ذاكرتى الى الابد !.. فجعلت احدق فى مياه النهر بنظر زائغ من غير ان اتنبه الى ان دموعى اخذت تسيل من عيني .. فان ادراكي كله كان قد تركز في فكرة واحدة :

«ان زينايدا قد جلدت بالسوط امام عينى !»

وافقت من شرودى اخيرا على صوت ابى يخاطبنى : «هل ضايقك الانتظار ؟» .. فأجبته وانا أقمع انفعالى : «قليلا .. ولكن اين اضعت سوطك ؟» .. فرمقنى بنظرة خاطفة وقال : «لم اضعه ، بل رميته عامدا !» ثم استغرق فى التفكير ، ونكس رأسه .. وعندئذ ، وللمرة الاولى والاخيرة على ما اذكر ، رأيت مدى الرقة والشفقة اللتين تستطيع قسمات وجهه الجامدة ان تعبر عنهما !.. وفجأة ركل جواده بمهمازيه وانطلق به يسابق الريح فى اتجاه بيتنا ، فبلغه قبلى بنحو ربع ساعة ..

وفى المساء، حين جلست الى منضدة كتبى ، جعلت اهمس لنفسي كالذاهل : **«هذا هو الحب .. هذه هى العاطفة الحقة، والا فكيف يستطيع المرء ان يتحمل ضربة سوط من يد كائن من كان ، بل من يد أعز انسان ، ان لم يكن ... يحبه ؟!» وللفور بدا لى غرامى بالفتاة كشىء صبيانى تافه يدعو الى الرثاء ، الى جانب هذه العاطفة الاخرى .. العنيفة .. العارمة!**

— ١٩ —

◆ **وبعد** شهرين التحقت بالجامعة .. ولم تكد تنقضى ستة اشهر حتى مات ابى بالسكتة القلبية فى «بطرسبرج» ـ حيث كنا قد انتقلنا منذ اسابيع ـ وكان قد استلم قبيل وفاته بايام خطابا من موسكو اثار غضبه وانفعاله ، وعلى اثر ذلك رأيته يتوجه الى غرفة امى فيطلب منها طلبا لم اقف على تفصيله .. وسمعت انه ذرف امامها دمعا غزيرا ، برغم انه كان بالدمع ضنينا !.. وفى صبيحة يوم وفاته الفجائية بدأ يكتب خطابا لى بالفرنسية جاء فيه : **«يا بنى احذر حب المرأة ، احذر ذلك السم فى الدسم !»** .. وبعد موته بايام ارسلت امى مبلغا كبيرا من المال الى موسكو !

— ٢٠ —

◆ **وانقضت** اربعة اعوام ، وتخرجت فى الجامعة .. فقضيت زمنا حائرا لا ادرى اية وجهة فى الحياة اتخذ ، واى باب اطرق .. وذات مساء قابلت الشاعر «ميدانوف» مصادفة فى احد المسارح ، فعلمت منه انه قد تزوج ، لكننى لم ألحظ عليه تغيرا يذكر!.. وفيما نحن نتحدث قال لى ضمن ما قال: «أتعلم ان (مدام دولسكى) هنا الان ؟ »

فقلت متسائلا: «ومن تكون مدام دولسكى ؟ »

ـ او يمكن ان تكون قد نسيتها ؟ .. تلك الاميرة الشابة التى وقعنا جميعا فى حبها ، بما فينا أنت ، يوم كانت تقيم فى المنزل الصغير المجاور لحدائق «نسكتشنى» ؟

ـ وهل تزوجت شخصا يدعى دولسكى ؟

ـ نعم ..

ـ وهل هى هنا فى المسرح ؟

ـ كلا ، بل اقصد انها فى بطرسبرج . لقد قدمت منذ أيام وهى توشك أن تسافر فى رحلة طويلة ..

ـ ومن يكون زوجها ؟

ـ انه شاب رائع ، ثرى ، كان زميلا لى فى موسكو .. أفليس غريبا أن تفوز به بعد فضيحتها الكبرى .. التى تذكرها جيدا ولاشك ؟.. لكن براعتها وذكاءها يكتسحان جميع العقبات !.. وبهذه المناسبة ، لم لا تذهب لتزورها ؟ انها سوف تسر كثيرا برؤيتك ..

واعطانى ميدانوف عنوان زينايدا ، وكانت تقيم فى فندق «ديمو» ، فثارت ذكرياتى القديمة فى اعماقى ، واعتزمت زيارتها فى اليوم التالى .. لكن عملا طارئا شغلنى . وهكذا انقضى اسبوع ، ثم آخر ، وحين توجهت اخيرا الى فندق «ديمو»

أسأل عن مدام دولسكي ، علمت ـ ويا للصدمة التى اصابتنى!ـ انها قد ماتت فجأة منذ اربعة ايام وهى تضع مولودها الاول !

وشعرت بخنجر يطعن قلبى .. وتولانى ندم فظيع وانا افكر فى اننى كنت استطيع ان اراها ، لولا تقصيرى ، وانني لن أراها قط بعد ذلك !.. فجعلت اكرر لنفسى وانا احدق فى حارس الفندق بغباء : « لقد ماتت !.. ماتت ..» .. ثم تنبهت لنفسى فقفلت راجعا الى الطريق ، ومضيت ذاهلا لا اعلم الى اين انا ذاهب .. كان ماضى كله قد استيقظ فجأة وطفا سابحا امام عينى .. اذن فهذه هى النهاية ؟ نهاية تلك الحياة الغضة اللامعة الفوارة بالحرارة والحيوية ؟.. وتراءت لى قسمات وجهها الحبيب ، وعيناها الساحرتان ، وخصلات الشعر ، والوجنتان .. راقدة فى ذلك الصندوق الضيق ، فى قلب الارض الرطبة المظلمة .. غير بعيد منى ، وربما على بعد امتار من أبى .. بينما انا لا أزال حيا ، انا وحدى !.. أواه ، ماذا بقى لى ، ما أملى فى الغد ، أى مستقبل يتراءى فى خيالى ، بعد ان غاض شبح حبى الاول ، كزفرة حارة تضيع فى الهواء .. ذاب كما يذوب الشمع فى الشمس .. كما يذوب الجليد !

والآن ، وظلال الليل تزحف على خريف حياتى ، اى شىء اعز على خيالى ، واغلى ، من ذكريات ذلك الاعصار الجامح الذى عصف بقلبى فى فجر شبابى ؟!

الجريمة.. والعقاب



المحاكمات الكبرى

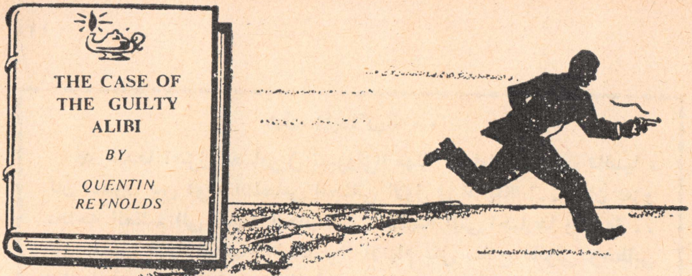
في الماضي والحاضر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى الاعداد السابقة من كتابى طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هى على التوالى : محاكمة « جورجيت هودو » ملكة الجمال الباريسية .. فمحاكمة السفاحين «بيرك» و «هير» .. ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم « سقراط » .. ومحاكمة «آن بولين» ملكة انجلترا فى عهد هنرى الثامن، فمحاكمة «دريفوس» .. ومحاكمة « ستافسكى » .. ثم محاكمة «مرجريت فهمى» .. ومحاكمة ملك انجلترا «شارل الاول» واعدامه .. ومحاكمة قاتل راسبوتين .. واخيرا محاكمة ملك فرنسا لويس السادس عشر .. ومحاكمة قاتل عشيق زوجته (من محاكمات أثينا القديمة)

واليوم اقدملك فيما يلى هذه المحاكمة الشائقة التى تولى الدفاع عن المتهم فيها محامى أمريكا الجنائى الاول « صامويل ليبووتز » ، وهى من المحاكمات النموذجية التى تضرب مثلا لاستماتة المحامى فى الدفاع عن موكله ومحاولة انقاذه من الاعدام بكل ما فى وسعه من وسائل ...

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله فى هذا الباب مجموعة منوعة من القضايا والمحاكمات الكبرى التى أحدثت دويا ، سواء فى الشرق او الغرب



اشهر المحاكمات والمرافعات

جريمة العشاق !!



هذه المحاكمة ..

◆ عندما اعتزل «صامويل ليبووتز» مهنة المحاماة ، ليصير قاضيا ، كان معدودا بين قومه «المحامى الجنائى الاول فى أمريكا» !.. وكان يعزو نجاحه العظيم الى ايمانه الحار القوى بالمهنة التى اختارها وأحبها .. كان يدخل قاعة المحكمة «ليحارب» الاتهام بكل سلاح قانونى وخطابى تعلم أن يستخدمه !.. ولعل أروع مثال لموهبته الفذة هذه القضية التى اطلق عليها «كل الادلة تقود (هوفمان) الى كرسى الاعدام ! »

◆ **ذات** صباح من عام ١٩٢٩ تلقى «ليبووتز» بطاقة مرسلة بالبريد تتضمن هذه الرسالة القصيرة المؤثرة :

« عزيزى مستر ليبووتز

« أكتب اليك هذه الرسالة كآخر التماس يائس ألجأ اليه .. فانى متهم بجريمة قتل أنا برىء منها ! وقد حكم على بالسجن مدة تتراوح بين عشرين سنة ومدى الحياة ، فى سجن « سنج سنج » ، بعد أن كافحت خمسة أعوام فى سبيل حريتى ، وأقام أصدقائى اكتتابا لجمع نفقات الدفاع عنى فى القضية . لكن المال الذى جمعوه قد نفد . فهل لك أن تساعدنى »

« هارى هوفمان »

النحس يلاحق المتهم !

◆ **كان** هوفمان قد اتهم بجريمة قتل وحشية راحت ضحيتها حسناء من حى « ستاتين أيلاند » بنيويورك تدعى « مود باور » .. وكانت حلقة الاتهام قوية ضده ، وان تألفت كلها من قرائن وملابسات مجردة من الدليل الحاسم ، ولعل هذا ماحمل المحلفين على انقاذه من الاعدام بالكرسى الكهربائى كما كانت تطلب النيابة ، والاكتفاء معه بعقوبة الدرجة الثانية فى جرائم القتل - حسب القانون الامريكى - وهى « السجن مدة أدناها عشرون سنة » !

وطعن هوفمان فى الحكم طالبا نقضه .. وبعد صراع قضائى استمر عامين ونصف عام ظفر له محاميه بنقض الحكم

واعادة القضية كى تنظر أمام هيئة أخرى من المستشارين ، على أساس وقوع النيابة فى «خطأ شكلى» !

وفى هذه المرة حرص ممثل الاتهام ـ المدعو ألبرت فاش ـ على تجنب الوقوع فى أى خطأ شكلى او قانونى ، وقدم القضية الى المحكمة طالبا الحكم باعدام المتهم ! **وكان معنى ذلك أن مصير هوفمان ـ فيما لو خسر القضية ـ الى الكرسى الكهربائى لا السجن المؤبد ٠ ورغم ذلك فقد قبل هوفمان أن يجازف بحياته : فاما الى الحرية ، واما الى القبر !**

ولكن لم ينقض على بدء نظر القضية أمام الهيئة الجديدة اسبوعان حتى أصيب محامى هوفمان بصدمة قلبية وهو يناقش أحد شهود الاتهام ، فأوقفت المحاكمة ، كى تجدد فيما بعد أمام هيئة ثالثة ٠٠ وفى هذه المرة استمر نظرها ثلاثة أسابيع ثم أسفرت عن انقسام الرأى فى صفوف المحلفين ، بحيث تساوت الاصوات فتعذر الوصول الى قرار !

وطالب محامى المتهم من فوره بمحاكمة رابعة ٠ ولكن قبل أن يجاب طلبه انتزعه الموت من القضية ومن الدنيا بأسرها !٠٠ وهنا كان اليأس قد تمكن من قلب هوفمان التعس ، فان الاموال التى اكتتب بها له أصدقاؤه للانفاق على القضية قد نفدت ، وزوجته قد حصلت على حكم بالطلاق منه وتزوجت من رجل آخر !٠٠ فكانت معجزة أن استطاع هوفمان مواجهة هذه الخطوب المجتمعة بعقل سليم من الخبل ٠٠

كيف قتلت المجنى عليها

◆ **لم** يكن فى قضية هوفمان التى رواها لمحاميه الجديد «ليبووتز» مايشجعه على قبول الدفاع عنه ، لكنه قبل المهمة متطوعا ٠ وكانت وقائع الدعوى كما صورتها النيابة تتلخص فيمايلى :



كانت مود باور ـ وهى شقراء جميلة فى الخامسة والثلاثين ـ تقود سيارتها، ومعها أمها، فى أحد شوارع حى «ستاتين أيلاند» حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، حين اصطدمت بعائق فى الطريق .. فتركت أمها فى السيارة وسارت على قدميها الى اقرب منزل كى تطلب معونة بالتليفون. فلما وصلت الى مفرق الطريق وقفت بمحاذاتها سيارة «فورد سيدان» ، ثم سمعت الام صوت ابنتها تصيح بها من مكانها قائلة أن السائق العابر سيحملها الى «جاراج» قريب .. **وكانت تلك آخر مرة رأت فيها الام ابنتها مود على قيد الحياة ، فقد اكتشفت جثتها بعد ساعة واحدة فى «الافرز لين» ـ درب العشاق ـ على بعد ميل تقريبا من المكان الذى تعطلت فيه سيارتها . ووجدت بجسمها رصاصتان ، اخترقت احداهما صدرها والاخرى عنقها ! وكان واضحا من فحص الجثة أن المرأة قد قاومت قاتلها مقاومة عنيفة ..**

وثارت ثائرة سكان «ستاتين ايلاند» اشمئزازا من فظاعة الجريمة ، وشجعت الهيئات الاقليمية حملة مطاردة المجرم بأن رصدت لمن يهتدى اليه جوائز يبلغ مجموعها ثمانية آلاف وخمسمائة دولار !

اوصاف القاتل ..

وبدأت تتكون فكرة أولية عن القاتل من الاوصاف التى أدلت بها فى التحقيق والدة المجنى عليها وشاهدان آخران قررا

انهما رأيا سائق السيارة «الفورد سيدان» . واتفقت كلمة الثلاثة على أنه كان يرتدى سترة بنية اللون ، وقبعة فى لونها ، وأنه أسمر البشرة ذو شعر بنى غزير . وأضافت شاهدة فى الثالثة عشرة من عمرها تدعى « باربرة فاهس » أنه كان يضع على عينيه نظارة وصفت شكلها . وظهر من تشريح الجثة أن الرصاصتين اللتين قتلتا المجنى عليها انطلقتا من مسدس أوتوماتيكى من عيار ٢٥ .

وارتاد رجال البوليس المنطقة التى وقعت فيها الجريمة ، وراقبوا سكانها نحو شهر كامل .. ثم خرجوا من أبحاثهم وقد حصروا التهمة فى المدعو « هارى هوفمان » : فقد كان يملك سيارة « فورد سيدان » ، ويحمل مسدسا أوتوماتيكيا من عيار ٢٥ ، كما كان أسمر البشرة .. وثبت من تحقيق رجال المباحث أنه قص شعر رأسه البنى الغزير بعد تاريخ الحادث بثلاثة أيام !

كان هارى هوفمان فى الثانية والثلاثين ، زوجا سعيدا ووالدا لطفلين . وكان يتولى ادارة آلة العرض فى احدى دور السينما المحلية ، ويضع على عينيه أثناء العمل نظارة تنطبق عليها أوصاف نظارة القاتل ! وفى ساعات فراغه كان يمارس هواية النفخ فى الآلة الموسيقية التى يطلقون عليها «البورى» ، كما كان يفخر باختياره عضوا فى جوقة الموسيقى بكنيسة المنطقة . وكانت الدلائل تدل على أنه يحيا حياة منتظمة لا غبار عليها ..

سلسلة من الاكاذيب !

لكنه لم يكد يقدم الى المحاكمة بتهمة القتل حتى أخذت الادلة تتراكم ضده بغير هوادة : فقد قرر هو أنه فى الساعة التى وقعت فيها الجريمة كان فى حى «مانهاتان» حيث قابل سمسارا ، ثم تناول طعامه فى مطعم صينى عينه .. لكن أحدا من سقاة المطعم الذى أرشد اليه لم يتعرف عليه أو يذكر مايؤيد روايته ! وفى الناقلة النهرية « المعدية » التى تنقل الركاب بين

«مانهاتان» و «ستاتين أيلاند» لم يصادف هوفمان وقت الحادث أى شخص يعرفه ليشهد بما يؤيد ذهابه الى مانهاتان !٠٠ كذلك قرر المتهم أنه على أثر خروجه من المطعم توجه فى الساعة الثالثة والنصف الى احدى دور السينما حيث لبث يثرثر مع صديق له يعمل فيها حتى الساعة الرابعة والنصف . . لكن هذا الاستشهاد انهار بدوره حين شدد المحقق الخناق على ذلك الصديق ـ ويدعى «راسى باركر» ـ فاعترف بأن المتهم جاءه بعد نشر أوصاف القاتل بأيام قلائل ، وكان بادى العصبية ، وذكر له فى تبرير تلك العصبية أن البوليس يستجوب كل شخص فى المنطقة يملك سيارة « فورد سيدان » ، ثم أضاف أنه لن يستطيع اثبات وجوده فى مكان بعيد عن مكان الجريمة فى وقت وقوعها . ولما كان الشاهد يعرف عن صديقه الطيب ماينفى عنه احتمال ارتكابه تلك الجريمة ، فقد قبل مسرورا أن يؤدى له هذه المساعدة فيشهد بأنه كان معه فى مانهاتان !٠٠ لكنه حين علم أن هوفمان يملك مسدسا أوتوماتيكيا من عيار ٢٥ ، وأنه أرسل المسدس بالبريد الى أخيه على أثر وقوع الحادث كى يخفيه عنده ، فقد ثقته فى صديقه وبدأ يرتاب فى أمره . . !

كل الادلة تسوقه ٠٠ الى كرسى الاعدام !

◆ **وكان** من الحجج التى ساقها هوفمان للتدليل على براءته أنه لم يذهب قط الى « درب العشاق » حيث وقعت الجريمة ، لكن فتى من عمال دار السينما التى يعمل فيها المتهم هو « وليم هواتيت » شهد بأن هوفمان سأله ذات مرة قبل وقوع الحادث بأيام : « هل تعرف طريقا غير مطروق أستطيع أن أذهب اليه بصحبة فتاة ؟ » فأرشده الى « درب العشاق » !

ثم جاء دور السمسار الذى زعم هوفمان أنه قضى فى مكتبه بضع ساعات يوم الحادث ، فشهد بأنه لايذكر شيئا من هذا

القبيل !٠٠ وأجمعت الآراء على أن هوفمان لو كان قرر فى بساطة أنه لايستطيع اثبات وجوده فيمكان بعيد وقت الجريمة ، لكان موقفه مريبا الى حد ما ، ولكن ليس ميئوسا منه ٠٠ أما بعد أن استشهد على بعده عن المكان بعدد من الشهود ، الذين جاءوا فكذبوه ، فقد ساء موقفه الى أبعد حد ٠٠

بقى أمر المسدس الذى يملكه المتهم من عيار ٢٥ ، وقد سئل عنه فقال ــ وبئس ماقال ــ انه حين قرأ أوصاف القاتل وظروف الجريمة التى ارتكبت بمسدس مشابه انتابه الذعر فسارع الى ارسال مسدسه الى أخيه ٠٠ فلما سئل الاخ أبرز المسدس وأبرز معه رسالة تلقاها من أخيه يقول له فيها : « احتفظ بهذا ٠ اخفه فى مكان أمين ٠٠ واذا سمعت اننىوقعت فى مأزق فلتسلمه الى محامى ! »

وعرض المسدس على خبير فى الاسلحة فجزم بأنه نفس المسدس الذى ارتكبت به الجريمة !

شاهد عيان !

ثم ضاقت حلقة الاتهام حول رقبة هوفمان حينشهد جندى الداورية « ماتيو ماكورماك » ــ الذى كان يقف على بعد ميل من مكان الحادث ساعة وقوعه ــ بأن سيارة « فورد سيدان » قد مرت به فىالساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين ، وكانت تسير بسرعة نحو عشرين ميلا فى الساعة ٠٠ وأنه قد رأى سائقها عن كثب ، ويستطيع ان يقطع بانه هوفمان بعينه !

تلك كانت ظروف القضية ومركز المتهم فيها ، قابقوسين أو أدنى من الكرسى الكهربائى ! لم يكن أحد قد رآه يطلق مسدسه على الضحية ، ولكن لعل هذا هو المشهد الوحيد الذى كان ناقصا من « الفيلم السينمائى » المحبوك الاطراف الذى صوره ممثل النيابة «فاش» وعرضه علي أنظار المحكمة والمحلفين، حتى أنهم حين أصدروا قرارهم بالادانة فى أول محاكمة للمتهم

ضجت قاعة الجلسة بشهقات الارتياح من جانب النظارة جميعا !

لكن هوفمان أصر مع ذلك ، ورغم كل هذه القرائن القوية ، على أنه برىء . وقال لمحاميه الجديد «ليبووتز» فى لهجة اليائس : « لو كنت القاتل لقبلت الحكم عن طيب خاطر ، بل [illegible] ـرحت بنجـاتى من الاعدام ، لكنى برىء تماما .. أتسمعنى ؟ انى برىء ، ومع ذلك فقد انقضت على حتى الآن خمسة أعوام وأنا سجين القفص ، كالوحش الفترس »

فأجابه ليبووتز فى برود : « دعنا نتصارح يا هوفمان . هل يعقل أن يكون المرء بريئا ، ثم يدلى بكل هذه الاكاذيب التى دبرتها لاثبات بعدك عن مسرح الجريمة ساعة وقوعها ؟ »

فصاح هوفمان : «أردت ان أهيىء دفاعا قويا عن نفسى خشيت ان يلصقوا التهمة بى مثـل ما الصقوهـا بالمدعـو «ليو فرانك» . ذلك كان ما سيطر على تفكيرى وقتئذ : مأساة ليو فرانك ! »

فسأله ليبووتز حائرا : «تعنى ليو فرانك الذى اعدم فى جورجيـا ؟ »

فأجاب هوفمان فى لهفة : «بالضبط . لم يـكن ثمـة دليل ضده عدا القرائن ، لكنهم الصقوا به التهمة . وبعد ان انقضت على اعدامه عشرة اعوام اعترف المجرم الحقيقى بارتكابه الجريمة التى اعدم فرانك من أجلها !.. تلك هى المأساة التى كانت ماثلة فى ذهنى عندما قرأت تفصيلات مقتل هذه المرأة «مود باور» واوصاف قاتلها .. فخشيت ان يكون مصيرى مصير ليو فرانك !»

الموت أفضل من السجن !

وبدأ المحامى الشهير يرتاب فى الامر فعلا ، فنهض واقفا وواجه موكله صائحا : « هل تدرك ان المحاكمة لو أعيدت من جديد ، وحكم عليك بالادانـة ، فسيكون الكرسى الكهربائى

ـ لا السجن ـ مصيرك المحتوم ؟ هل انت مستعد لتحمل هذه النتيجة المحتملة ؟»

وعندئذ صاح هوفمان : «رباه يا مستر ليبووتز ، انى لافضل الموت بالكرسى الكهربائى على الحياة خمسة عشر عاما أخرى فى السجن !»

وهنا نظر اليه ليبووتز ممعنا ، وقد اعجبته شجاعته ، ثم وجد نفسه يقول له : «انا اعتقد انك برىء حقا يا هارى . وسوف اطلق سراحك !»

مناورات الدفاع !

◆ **وبدأت** المحاكمة «الرابعة» فى محكمة الجنايات الكبرى فى «بروكلين» .. واظهر «ليبووتز» تدقيقا وحرصا شديدين فى اختيار المحلفين ـ والنظام القضائى فى الولايات المتحدة يعطى محامى المتهم حق تجريح المحلفين واستبعاد من يرى استبعاده منهم ، بعد اثبات أهمية ذلك بالمبرر الكافى ـ فكان يسأل كل واحد منهم فى اهتمام : «هل تعرف هوراشيو شاريت ؟» فاذا هز المحلف رأسه علامة النفى والحيرة أردف المحامى ملحا : « انه شقيق (كلنتون شاريت) الزعيم السياسى لمنطقة ستاتين أيلانـــد ؟ »

وقاطعه ممثل النيابة فى اول مرة صائحا : «انا اعترض على توجيه هذا السؤال» .. ثم مال ناحية ليبووتز هامسا : «كفى زجا بالسياسة فى القضية !» فاجابه ليبووتز فى لهجة المعلم الصبور الذى يوبخ تلميذا يخل بالنظام : «لو تكرمت فلتوجه اعتراضاتك الى المحكمة وليس الى والى المحلفين !»

واستمر الصراع سجالا ..

وابتسم المحامى ابتسامة الارتياح حين أتم «تصفية» المحلفين واختيار أصلحهم .. لقد حرص على ان يكون من بينهم اربعة مهندسون على الاقل ، كى تتوفر لهم مؤهلات فهم

عملية عرض ومعاينة فنية كان قد بيت النية على مفاجأة المحكمة بها !

وترافع ممثل النيابة ، مكررا أدلته السابقة ، ثم ختم مرافعته مباهيا : «ان النيابة سوف تقدم اليكم هوراشيو شاريت وتثبت لكم انه ليس قاتل المجنى عليها «مود باور» كما يريد الدفاع ان يدخل فى روعكم !»

فقاطعه ليبووتز صائحا : «انا لم أقل شيئا من ذلك .. وان كان «شاريت» قد رؤى فى الواقع بقرب مكان الجريمة على اثر وقوعها .. كما تنطبق عليه اوصاف الشخص الذى استقلت المجنى عليها سيارته قبيل مصرعها . فضلا عن انه قد تصرف تصرفا شاذا كما سأبين لكم فى حينه !»

وهنا زمجر ممثل النيابة معترضا ، فأسكتته المحكمة . لكن المحلفين كانوا قد بدأوا يتساءلون عما اذا كانت لـ «شاريت» هذا صلة بالجريمة حقا ؟

تجريح شهود الاثبات !

وبدأ المحامى استجوابه لشهود الاثبات ، وكانت اولاهم الفتاة «باربرة فاهس» ـ التى كانت يوم وقوع الجريمة فى سن الثالثة عشرة فصارت فى الثامنة عشرة ـ فدلل من اجابتها المترددة ، بفعل النسيان ومضى المدة ، على أنها شاهدة متشككة لا يعتمد على أقوالها .. **وجعل يناقشها بلهجة «أبوية» حتى انتزع منها الاعتراف بانها لم تتعرف على المتهم فى شهادتها القديمة الا بعد حضورها عدة «مؤتمرات» عقدها رجال البوليس والمباحث وبعد أن عرضوا عليها صورة له نشرت فى الصحف .. فلما انتهى ليبووتز من استجواب الشاهدة لم يبق واحد من المحلفين لم يؤمن بأن شهادتها الاولى كانت ملفقة موحى بها !**

وجاء دور ضابط الداورية «ماتيو ماكورماك» ، فصعد الى منصة الشهود وهو يحدج المحامى الداهية بنظرة توجس ! .. وبدأ ليبووتز يجرحه : لماذا انتظر هذا الضابط شهرا كاملا بعد وقوع الحادث قبل أن يشهد بأنه رأى المتهم فى مسرح الجريمة يقود سيارته ، وتعرف عليه ؟ هل أمره ممثل النيابة «فاش» بأن يتوجه الى قسم البوليس ليتعرف على هوفمان ؟ .. الخ

وبدأ ماكورماك يتراجع فى ارتباك ظاهر . ثم أنكر شهادته السابقة .. وهنا انبرى له ممثل الاتهام غاضبا مضطربا ليؤكد له انه قد أدلى بتلك الشهادة بلسانه ولم تنسب اليه زورا ، وانه انما يكذب الان عامدا حين ينفى ما سبق ان قاله ..

وهبط ماكورماك من المنصة وقد أطاح الدفاع بشهادته هو الآخر !

شهادات يلفقها البوليس !

أما الفتى « هواتيت » الموظف بدار السينما فلم يحوج ليبووتز الى اكثر من خمس دقائق لينسف شهادته نسفا .. بعد أن اثبت انه من ارباب السوابق المحكوم عليهم فى جرائم السرقة ، ثم جعله يعترف ، وهو يمسح عرق الخجل والخوف ، **بانه انما شهد بأن المتهم سأله عن «الطريق غير المطروق الذى يستطيع أن يختلى فيه بفتاة» بعد ان أمسى تحت رحمة البوليس الذى وضعه تحت المراقبة على أثر الحكم عليه فى احدى السرقات !**

وغادر الغلام المنصة وقد صارت شهادته عديمة الوزن او الاعتبار ..

ثم نودى الشاهد التالى «هارى ادكنز» ـ وهو غلام آخر يعمل فى دار السينما ـ فاعترف بانه رأى نظارة المتهم معلقة فى كشك آلة العرض بالدار فى ذات الساعة التى ارتكبت

فيها الجريمة ، مما يدحض شهادة باربرة هافس التى قالت ان القاتل كان يرتدى نظارة بنفس الاوصاف ، الامر الذى ينفى الشبهة عن المتهم . **ثم اضاف الشاهد ان احد رجال البوليس قد ضربه لانه ابى أن يشهد ضد هوفمان فى المحاكمة السابقـــة !**

صراع .. بين الدفاع والنيابة !

◆ **واحس** «فاش» ممثل النيابة ان غريمه ليبووتز يعتزم توريط «هوراشيو شاريت» فى القضية ، فرأى ان يسبقه فيفسد عليه قصده بطلب سماع شهادة غلام من موزعى البريد يدعى «روبرت فرجسون» ــ وكان قد شهد فى المحاكمة السابقة بانه رأى هوراشيو شاريت قرب مكان الجريمة ، لكنه عاد فتبين أنه كان مخطئا فى ظنه !

وكان قصد فاش من طلب اعادة سماع هذا الشاهد ان يفسد تدبير الدفاع فيظهر الغلام فى ثوب شاهد الاثبات لا شاهد النفى ، ويطلب سماعه قبل ان يطلب ذلك غريمه . **لكن فرجسون لم يكد يصعد الى المنصة حتى اوقعه ليبووتز فى فخ اضطره للاعتراف بانه ظل اسابيع طويلة بعد وقوع الجريمة يعتقد انه رأى شاريت قريبا من مكانها ، ولم يطلق هذا الاعتقاد الا بعد أن اوحى له رجال البوليس بأنه واهم !**

ثم نودى كونستابل من راكبى الموتوسيكل يدعى «توماس كوسجروف» ، فشهد بأنه اوقف سيارة هوراشيو شاريت عقب الحادث عند مدخل «درب العشاق» ، فأنبأه بوقــوع الجريمة وتحدث اليه قليلا ، ثم تركه يمضى ..

وانزعج «فاش» لتطور أسئلة الدفاع واتخاذها هــذا الاتجاه ، فنهض وصاح مقاطعا ليبووتز : «هل تريد ان تقول ان لمستر شاريت صلة بالجريمة ؟» .. فاجابه هذا فى هدوء : «لست اقول شيئا من هذا .. كل ما أريد أن اقوله انك ــ

لصداقتك بمستر شاريت ـ لم تحقق الشبهة التى حامت حوله كما كان ينبغى !»

وهكذا ـ بالتدريج ـ كان المحامى الداهية يبعد اذهان المحلفين عن هوفمان ويركزها فى شاريت .. حتى تبين «فاش» ان السبيل الوحيد الى افساد خطة خصمه هو أن يطلب استدعاء شاريت لمناقشته !

لكن قصده انقلب عليه ايضا ، حين انتهز ليبووتز الفرصة فأثبت من مناقشته للشاهد انه صديق حميم لممثل النيابة منذ عشرين عاما . كما حمله على الاعتراف بانه كان يوم الحادث بالذات مارا بجوار مكان الجريمة بسيارته التى من طراز «فورد سيدان» !

وكان هذا ما يبغى الدفاع الوصول اليه ، كى يزرع فى قلوب المحلفين الشك فى شخص القاتل ، ويزعزع يقينهم بصدد ارتكاب هوفمان للجريمة وحصرهم للتهمة فيه وحده .. واذ بلغ ليبووتز غايته من هذا التشكيك ، اذن للشاهد وهو يبتسم بأن يغادر المنصة ..

عملية عرض مسرحية !

◆ **وكانت** المشكلة التالية هى اعقد العقبات القائمة ضد المتهم . فلو أفلح فاش فى اقناع المحلفين بان المسدس الذى انطلقت منه الرصاصتان القاتلتان هو مسدس هوفمان بالذات ـ كما شهد خبير الاسلحة ـ لاضطروا الى ادانة المتهم .

وهنا ـ لكى يهدم شهادة الخبير الموثوق به ـ عمد ليبووتز الى عملية عرض مسرحية : طلب ان يوضع «الميكروسكوب» الذى أحضره معه على منضدة امام منصة هيئة المحكمة ، والى جواره وضع عدداً من منصات الرسم تحمل خرائط وأشكالا هندسية وصورا فوتوغرافية لرصاص



منفجر . ثم قدم شاهديه الجديدين : غلافى الرصاصتين اللتين وجدتا فى جسد القتيلة !

ونودى الكابتن «جونز» ـ خبير الاسلحة بادارة بوليس نيويورك منذ ٣٢ عاما ـ فشهد بأنه اطلق خمسين رصاصة بمسدس المتهم واحتفظ معه بأغلفة تلك الرصاصات . . وهنا وضع ليبووتز واحدا منها تحت المجهر ، والى جانبه غلاف احدى الرصاصتين القاتلتين . . ودعا المحلفين كى يروا بأنفسهم الفرق بينهما ، فكان واضحا للعيان . . وهنا استدعى ثلاثة آخرون من الاخصائيين ، فأيدوا وجود هذا الفارق ، واضافوا ان الخمسين «ظرفا» المنطلقة من مسدس المتهم كلها متشابهة تماما ، وكلها تخالف ظرف رصاصة القاتل !

المفاجأة الحاسمة

◆ **وهنا** صعد المتهم هارى هوفمان الى المنصة ، فروى للمحكمة ـ ردا على اسئلة محاميه ـ المخاوف التى انتابته على اثر نشر أوصاف القاتل فى الصحف ، وكلها تنطبق عليه ! وتحدث عن موجة السخط الهستيرية التى سادت المجتمعات والرأى العام فى الايام التالية لوقوع الجريمة ، وكيف اغرته بأن يسبق الاتهام فيبحث لنفسه عن ادلة وشهود يثبتون براءته . فلما أعوزه الشهود الحقيقيون دبر شهودا مفتعلين ، كما سلف البيان . .

وترك ليبووتز المتهم يتكلم على سجيته : فقال انه كذب وكذب فى اقواله ، لكن الاكاذيب كلها ارتدت عليه وعززت ادلة الاتهام ضده ، فنال عقابه الكافى عليها بالخمس سنوات المروعة التى قضاها فى السجن حتى الان .

وهنا نهض المحامى ، فسلم الى المتهم مسدسه الخاص، وسأله :

س ـ هل استعملت يوما هذا المسدس ؟

ج ـ ولا مرة فى حياتى .. وما كان يمكن ان استعمله

س ـ لماذا ؟

ج ـ لان زناده يقع فى الجانب الايمن وانا اصنع كل شيء بيدى اليسرى !

وصعق ممثل النيابة . انها اول مرة تكتشف فيها هذه الظاهرة وتثار فى القضية !

ومضى ليبووتز يستدعى شهود النفى شاهدا بعد الآخر ، ليقرروا جميعا ان المجنى عليها قد قتلت بواسطة شخص يستخدم يده اليمنى !

الحكم !

◆ وفى اليوم التالى نشرت جميع صحف نيويورك فى صفحاتها الاولى نبأ الحكم ببراءة هارى هوفمان !.. ولم يكن ليبووتز حين أدخل هوراشيو شاريت فى القضية ينوى ان يتهمه بارتكاب الجريمة ، ولا كان فى يده الدليل على أنه مرتكبها .. وانما هو قد استخدمه بنجاح كى يبذر فى أذهان المحلفين بذور الشك القوى فى ارتكاب المتهم لها ، بالتدليل على أن شهادة الاثبات تنطبق على رجل آخر كما تنطبق على هوفمان ..

والشك عادة يفسر لصالح المتهم !

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قرأت معى فى الاعداد السابقة ، من القصص الآتية على التوالى :

لوكريشيا بورجيا
« تيبريوس » قيصر روما
عشيقة نابليون (مارى فالفسكا)
فضيحة «كارولين» ملكة انجلترا
الحب أقوى من الموت !
امرأة وملك (مدام دى مانتنون)
نيرون : الطاغية السفاح
ليدى هاملتون
مارى انطوانيت
مصرع القيصرية فى روسيا

واليوم أقدم اليك فيما يلى قصة ملكة لغواية « بولين بونابرت » شقيقة نابليون التى انفردت بالاخلاص له حتى الموت ، وان ساهمت فى تقويض سمعته !

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله المزيد من قصص التاريخ الشائقة ومآسيه الكبرى .


PAULINE BONAPARTE
BY
KENNETH FENWICK
ملكة الغواية !
بولين بونابرت
شقيقة الإمبراطور .. التي عجلت بنهايته !

زهرة تتفتح قبل الاوان ..

◆ **فى** منزل متواضع بالحى العتيق من « مرسيليا » ، حلت فى سنة ١٧٩٣ أسرة كورسيكية فرت من جزيرة « كورسيكا » حين تنكر أهلها للثورة وانتقضوا عليها ، فقد كان الشقيقان اللذان يعولان الاسرة من غلاة « اليعاقبة » المتحمسين للثورة الفرنسية .. وكان شقيقهما الثالث من ضباط جيش الثورة بالذات ، وقد أبلى أحسن البلاء فى (حصار طولون) ..

وكانت الاسرة الكورسيكية اللاجئة تتألف الى جانب الشقيقين والاخ الغائب من أم عجوز لا تكاد تأبه للحياة أو تحفل بالدنيا ، ومن فتاتين احداهما فى الثالثة عشرة من عمرها والاخرى فى الحادية عشرة .. هما « بولين » و « انونزياتا » التى كانت تستثقل اسمها وتصر على أن تستبدل به اسم « كارولين » ..

وكان مقدورا على الصغيرتين أن تعيشا معيشة فقر ومسغبة، فتضطلعا بمهام البيت وشئون الاسرة، وتتوليا بنفسيهما غسيل ثيابهما البالية ومسح بلاط منزلهما المتواضع .. ولعل هذه الاعمال الخشنة تركت أثرا فيهما ، حتى ان « بولين » كانت فى ذلك الحين تبدو أشبه ما تكون بغلام شرس !

على أن ذلك لم يكن ليبخس من جمال الفتاتين شيئا ، اذ كانت الطبيعة قد خلعت عليهما جمالا فاتنا ، ورشاقة ضافية .. وكانت البيئة قد بثت فى نفسيهما أفكارا فوق مستوى عمريهما .. وقد تضافرت هذه الافكار مع الدماء الايطالية التى كانت تجرى فى عروقهما ، ومع الروح الجامحة الفائرة التى اتسمت بها « كورسيكا » ، ومع الثورة التى كانت تسود تلك الايام ، فاذا الفتاتان تنضجان قبل الاوان ، واذا النزوات

الجامحة تراودهما على صغر سنهما ، واذا هما ترمقان الرجال بتلك النظرات التى لا تصدر الا عن أنوثة عارمة ٠٠

غـــرام مزدوج !

◆ **واستلفت** ذلك كله أنظار المواطنين «بارا» و «فريرون» ، عضوى مجلس الثورة فى مرسيليا ، حين اتصلت أواصر ودهما مع رجلى الاسرة ـ الشقيقين اليعقوبيين ـ وتوطدت علاقاتهما بهما الى درجة أباحت لهما التردد على دار « بونابرت » ٠٠ فقد كانت الاسرة الكورسيكية اللاجئـــة هى الاسرة التى أنجبت « نابليون » !٠٠ وكانت الفتاتان شقيقتيه !

وفتن الثـوريان صاحبا النفوذ والســلطان باليافعتين الصغيرتين ٠٠ ومن عجب ان أكبرهما سنا أغرم بصغرى الفتاتين ، فاختار « بارا » ـ الذى كان فى الثامنة والثلاثين من عمره « كارولين » ابنـــة الحادية عشرة ٠٠ فى حين أن « فريرون » ـ الذى كان يصغره بعشرة أعوام ـ شغف ببولين، ابنة الثالثة عشرة ٠٠

وكانت ظروف عهد الارهاب قد أطاحت بالمبادىء الخلقيـــة ـ اذ اعتبرتها من التقاليد « البورجوازية » البائدة ! ـ لذلك لم يجزع أحد من أفراد الاسرة الكورسيكية لرؤية الصغيرتين تغدوان عشيقتين للشابين الثوريين !

وكان « فريرون » مخلصـــا فى هواه ، صادقا فى هيامه ٠٠ أما « بارا » فكان يستمرىء علاقته « بالعصفورة الصـغيرة » ، دون أن يفكر يوما فى أن يتجـاوز بها النطاق الحر الطليق الذى كانت عليه ، اذ كان يسخر بمبدأ الزواج ولا يعترف به ٠٠

وعلى أية حال ، فقد استوى المنكر للزواج بصاحبه الذى ما كان ليمانع لو انه طولب بأن يتزوج من فتاته ٠٠ تساويا فى المضى فى نشوة الغرام دون زواج !

بولين تدفع ثمن ترقية نابليون !

◆ **ولعل** الشخص الوحيد من أفراد الاسرة الذى كان قمينا بأن يستنكر هذه العلاقة ، هو ذاك الشقيق العسكرى الذى قضت عليه الثورة بأن يظل فى ثكنات الجيش ، بعيدا عن الدار ‥ أما الشقيقان اليعقوبيان ، فقد آثرا أن يغمضا أعينهما على حلم وأمل ‥ كانا يطمعان فى أن تتزوج أختاهما ذينك الشابين اللذين كانا ينتميان الى الطبقة الحاكمة الجديدة فى فرنسا - طبقة أعضاء الحزب اليعقوبى الذى فرض الارهاب على البلاد - أو على الاقل أن يفيدا من علاقتهما بهما ‥

واذا كان الامل الاول قد فاتهما ، فان الامل الثانى سرعان ما بدت ثماره ، يوم استطاع **الثائران الشابان** أن يحملا الحكومة على أن تقرر لمدام بونابرت معاشا خفف من شظف حياة الاسرة ، وأعفى الغانيتين الصغيرتين من متاعب غسيل الثياب ومسح البلاط ‥

ثم ثنى الرجلان بأن سعيا لدى أولى الامر كى ينصفوا « نابليون » الذى لم يكن يكف عن الشكوى من أن أحدا لم يقدر خدماته أو يكافئه على بلائه فى « طولون » ، فعملا على نقله الى باريس ورشحاه للترقية ‥

وفرح « نابليون » بالفرصة التى أتيحت له ، وهو فى غفلة عن الثمن الذى دفع من أجلها دون علمه !

وأقبلت « بولين » على حب « فريرون » بكل ما أودعت الطبيعة قلبها من عاطفة مشبوبة جامحة ‥ وكان اذا غاب عنها أياما قلائل أمطرته خطابات تضطرم بنجوى متدلهة مشغوفة ما كان أحد ليتصور أن تصدر عن فتاة فى مثل سنها !

وعقدت عزمها على أن تظفر به زوجا ‥ ولكن القدر كان يدبر غير تدبيرها ‥ اذ شاء لنابليون أن يصعد سلم السلطان بخطى حثيثة ، فلم يعد يرى « فريرون » أهلا لبولين ، شقيقة القائد المظفر ‥ وأصبح يوقن بأن أختيه خليقتان بأن تكونا

حليلتين للثراء والجاه والسلطان ، وأن عليهما أن تتريثا ريثما يجد لهما من الازواج من يكونان جديرين بهما ..

ومن سخريات القدر ، انه فى تلك الاثناء تزوج نابليون من « جوزفين دوبوهارنيه » ، احدى العشيقات اللاتى حظى بهن « بارا » يوما ثم نبذهن بعد أن قضى منهن وطره !

ومع أن « بولين » ظلت تغدق على « فريرون » تلك الخطابات العاطفية الملتهبة ، الا أن جواها لم يردعها عن أن تتقلب فى أحضان غيره من الشبان ، لا سيما الضباط الذين كانوا يعاونون أخاها « نابليون » ، فقد كان للرداء العسكرى سحر يجتذبها ويعمى عينيها عن أى عيب أو نقص فى خلق لابسه !

وكانت فلسفتها فى الحياة توحى اليها بأن من حقها أن تظفر بما تبغى ، فلما حاول « نابليون » أن يروضها ويسوسها، كانت فترة التهذيب قد فاتت .. وأثبتت الايام أن الجبار الصغير كان عاجزا عن أن يكبح جماح أختيه .. وكان أعجز ما يكون مع «بولين» بالذات .. فقد كانت الاثيرة المدللة لديه !

هل يخفف الزواج من طيشها ؟

◆ **ووفق** « نابليون » الى العثور على زوج لاخته الجامحة حين بلغت السابعة عشرة من عمرها ، فدفعها اليه وهو يرجو أن يجردها الزواج من الرعونة الطائشة ، وأن تستقر بها الحياة ..

وكان الزوج الذى راق لنابليون هو الجنرال« لوكلير » .. ولم تعارض « بولين » ، لا لانها أعجبت بثقافته الواسعة أو بثروته الطائلة ، وانما لان رداءه العسكرى استهواها .. ولانه كان مليحا ، وسيما ، أشقر الشعر .. ولانه كان يقلد أخاها فى كل شىء ، حتى انهم كانوا يطلقون عليه لقب « بونابرت الاشقر » !

وعاش الزوجان عدة أسابيع فى نشوة من السعادة الضافية .. ولكن جدة الزواج وطرافته لم تلبث أن انجابت مع مرور

الايام ، ولم تعد « بولين » ترى في دور الزوجة بهجة تكفيها ، فتحولت تعامل « لوكلير » معاملة السيدة للعبد الرقيق !٠٠ ومع انه كان يعبدها ويغتفر لها هناتها وزلاتها ، الا أنها أمعنت فى قسوتها عليه ٠٠ لا عن عمد ، فقد كانت بطبيعتها تنفر من القسوة ، ولكن ٠٠ فى غير وعى !٠٠ أو هكذا يحاول بعض المؤرخين أن يبرروا تصرفاتها ازاء الزوج المسكين !

تفضح غراميات جوزفين !

◆ **وبدت** الحياة للحسناء الرعناء فى تلك الفترة نعيمـا مقيما ٠٠ فقد تم زواجها فى « مونتبللو » حيث كانت أكاليل الغار تترى على « نابليون » ، وكان المجد يتمسح به ويداهنه ، بعد الانتصارات التى أحرزها فى حملته الاولى على ايطاليا ٠٠ ولم يكن مستغربا أن تغمر أضواء التكريم أسرته معه٠٠ووجدت « بولين » فى المآدب والحفلات التىأقيمت للبطل المظفر، مسارح للهو أخذت ترتع فيها غير حافلة بشىء !

وكانت تفتح عينيها على كل شىء ، وترهف أذنيها لكل نأمة ، ولا ترعوى أن تلصق أذنا بثقب أحد الابواب تتسقط الاسرار٠٠ وعبثا حاول « نابليون » أن يصدها عن هذا التجسس ، فقد كان ما حصلته أكثر من أن يدعها ترتدع ٠

وكان أهم محصولها أن وقفت على غراميات « جــوزفين » الخفية ، فحاولت أن تفتح عينى « نابليون » عليها ، ولكنه آثر أن يبقى عينيه مغمضتين ٠٠ طواعية واختيارا ٠٠ وكانت بولين تكن لجوزفين كراهية ضافية ، لانها أبت أن تعينها على تحقيق أحلام الهوى مع « فريرون » ، ومن ثم لم تكن تألو وسعا فى التشهير بها وايلامها ٠٠ وكانت تسميها « القفاز الذى بلى لفرط الاستعمال » نكاية واغاظة ٠٠

وتهافت الضباط الشبان على « بولين » ، وتهافتت عليهم ٠٠ وغزوا قلبها كما غزت قلوبهم ٠٠ وأوغلت فى اللهو منتشية ،

حتى لقد مضت تشاطر « جوزفين » غير قليل من عشاقها !

وهكذا لم تعد ترى الحياة فى تلك الفترة من العمر سوى لهو متصل ، ومجون مسترسل ٠٠

ومن الطريف انها كانت تستشعر فى أسى « لوكلير » لحالها، وشقائه بعبثها ، عنتا يجرح احساسها !٠٠ وكانت تود لو تراه سعيدا لسعادتها ، بدلا من أن يتجهم للحياة ويصعد التنهدات محسورا !

ثم آن لنابليون أن يرحل الى باريس ليتبوأ فيها مركز «القنصل الاول » ٠٠ ولكن بولين بقيت دون الركب ريثما وضعت ابنها « درميد » ، ثم لحقت بالقوم ٠٠ بيد أنها لم تقطن مع أخيها ، وانما آثرت أن تتخذ دارا خاصة جعلتها مباءة للمرح والعبث ٠٠

وكان « نابليون » ـ والحق يقال ـ أكثر الناس سخطا على تصرفاتها الفاضحة ، فلما أوفد « لوكلير » على رأس حملة الى « هايتى » ، أمره بأن يصطحب زوجته معه !٠٠ وعبثا بكت « بولين » وتوسلت ٠٠ عبثا غضبت وتدللت ٠٠ عبثا تمارضت وراحت تشكو من أن أخاها باصراره على ذهابها الى « هايتى » انما قضى عليها بما هو أقسى من الموت ٠٠ بالضجر والسأم ٠٠ فقد أصر « نابليون » فى حزم حاسم على رغبته !

على أنها لم تلبث أن رقأت دمعها ، وتخلت عن تجهمها وهى بعد على السفينة ، اذ ساقت اليها الصدف الساخرة « فريرون » فاذا هو بين الراحلين ، مما بعث الامل الى نفسها فى أن تجدد هواها الملتهب معه !

حرب ٠٠ وكرب ٠٠ وأوبئة !

◆ **وكانت** «هايتى» اذ ذاك قطعة من الجحيم ، اذ قام أهلها الزنوج بثورة لم يسبق لها مثيل ، فراح الفرنسيون يحاولون فى استماتة قمع تلك الثورة ٠٠ بيد أنهم سرعان ما تبينوا أن ثمة جبهة أخرى قضى عليهم بأن يقاتلوا فيها ٠٠ اذ دهمتهم

الملاريا ، وتفشت بينهم الكوليرا ، وانقضت عليهم الحمى الصفراء !

وحاولت « بولين » فى البداية أن تستأنف حياتها العابثة – لا سيما وأن شمس « هايتى » كانت تزيد نزواتها المشبوبة ضراما ! – ولكن الموت كان يطبق بأنيابه على الفرنسيين ٠٠ واختطف فيمن اختطف « فريرون » معبود « بولين » !٠٠ ثم حاول أن يتبعه بلوكلير – زوجها – فسلط عليه « الكوليرا » ٠٠ وفى الوقت ذاته سلط الزنوج على القوات الفرنسية فحطموا آخر تحصيناتها ، واضطر القائمين عليها الى أن يقرروا ترحيل النساء والاطفال ليفرغوا للمعركة الفاصلة ٠٠

ولاول مرة رأت « بولين » نفسها أمام خطر حقيقى ، فطرحت نزواتها جانبا ، وتخلت عن أنانيتها ، وتولتها بطولة طارئة ، فاذا بها ترفض أن ترحل مع الراحلات ، بل أصرت على البقاء ، قائلة لزميلاتها :

– اذهبن اذا شئتن ٠٠ فلستن شقيقات لبونابرت !

خصلة شعر !

٠٠ ولقد ظن البعض ان هذه الواقعة من نسج خيال أناس راق لهم أن يتملقوا « نابليون » فى أوج سلطانه ٠٠ ولكن الملابسات والاحداث قامت تؤيدها ٠٠ ومن ذلك أن « بولين » استمرت – بعد انكسار شوكة الثائرين – فى هجرانها للهو والمجون ، وعكفت على تمريض الزوج الذى طالما أساءت اليه وقست عليه ٠٠ وأكثر من هذا انها فى تمريضها اياه لم تصدر عن مجرد تظاهر ، أو عن مجرد اشفاق ، بل انها كانت مخلصة صادقة فى توفرها على خدمته ، حتى ٠٠ حتى لفظ آخر أنفاسه ٠٠ واذ ذاك استبد بها حزن طاغ ، بلغ من سيطرته عليها أن دفعها الى أن تقص شعرها لتودعه القبر مع جسد زوجها !

ومع ذلك ، فانها لم تكد تستقر فى فرنسا مع ابنها بعد ترملها ، حتى تبينت أن ثياب الحداد تبرز مفاتن جمالها ، فعاد

الطيش يراودها ٠٠ وكان أن اضطر « نابليون » الى حبسها فى دارها - كما لو كانت سجينة حقا - طيلة فترة الحداد ، حتى لا يدفعها التهور الى فضيحة تسيء الى سمعته ٠٠ ولم يحفل بتمارضها ، لا ولا بتهديدها بالانتحار ، وشكواها من أن السأم يقتلهـــا !

وبمجرد انتهاء فترة الحداد ، استطاع « نابليون » أن يعثر لها على زوج آخر يعصمها ، أو يكون ستارا يخفى فضائحها ٠٠ وكان ذلك الزوج ايطاليا « أبله » من نسل الامراء ، هو « كاميى بورجيز » ٠٠

ولم تعارض « بولين » ، فقد استهواها لقب الامارة ٠٠ علـى أن طرافته لم تكد تخبو حتى انقلبت تعامل « بورجيز » كما عاملت « لوكلير » من قبل ٠٠

ومرة أخرى، عاد الموت يرهبها ويحاول أن يوقظها من غفلتها، فاختطف ابنها ٠٠ ولكنه أخفق فى أن يكبح جماح انسياقهـا لنزواتها ، واندفاعها فى تيار الغواية ٠٠ وزادها اندفاعا أن « نابليون » كان قد بلغ القمة ، وأوشك أن ينصب نفســه امبراطورا على فرنسا ٠٠ ومن ثم دعيت أختاه الى باريس كى ترفعا ذيل رداء « جوزفين » فى حفلة التتويج !

ومن الطريف - بهذه المناسبة - انهما اعتبرتا رفع ذيل رداء « جوزفين » مهمة لا تليق بمقامهما، لذلك بيتتا فى نفسيهما أمرا ٠٠ فلما بلغ موكب التتويج المنصة التى أعـدت لعرشى الامبراطور وزوجته ، أشارت « بولين » خفية لاختها ، ثم أفلتتا ذيل الثوب فجأة ، فكادت « جوزفين » تسقط على ظهرها لثقله ، فى عين اللحظة التى همت فيها بالصعود الى العرش !

نابليون يحتال للتخلص من عشاق أخته !

وعادت « بولين » الى ايطاليا ، تحمل لقب أميرة « جاستالا » الذى خلعه عليها أخوها ٠٠ ولكنها لم تعد وحيدة ، بل اصطحبت أستاذا في الموسيقي كانت تعامله أحيانا كعشيق وخليـــل ،

وأحيانا ككلب مدلل أثير ٠٠ كيفما شاء لها هواها ! وأحاطت نفسها بحاشية كانت تتفكه فى اجتماعاتها بأفرادها ، برواية القصص البذيئة والفضائح المشينة !

ولم يفارقها طيلة تلك الاثناء شغفها بالزى العسكرى وتهافتها على أصحابه ٠٠ **ولكن اندلاع نيران الحرب مع اسبانيا أوحى الى « نابليون » بطريقة للتخلص من عشاق أختيه من العسكريين: فكان يوفد العشاق الشبان برسائل - غير ذات أهمية - الى جبهة القتال ، ويتعمد توجيههم خلال المناطق التى تسيطر عليها العصابات الاسبانية الثائرة ، معرضا اياهم لموت محقق ٠٠**

بيد أن بذخ « بولين » وأختها واسرافهما فى الانفاق على ملاهيهما لم يلبث أن صار عاملا من العوامل التى زعزعت ما كان يتمتع به « نابليون » من حب الشعب واعجابه ٠٠ ويكفى لتصوير هذا الاسراف أن نذكر أن « بولين » أقامت عقب طلاق « نابليون » من جوزفين وزواجه من « مارى لويز » النمسوية ، مأدبة استغرقت نفقاتها ايراد عدد من أقاليم فرنسا ، وفاقت فى بذخها كل ما كان يروى عن المآدب فى العهود التى سبقت الثورة الفرنسية ٠٠ حتى اذا تناهت اليها همسات الشعب المتذمرة ، أقامت للجمهور مأدبة أخرى ٠٠ ولكن الناس هزوا أكتافهم فى غير رضى ، وتهامسوا بأنهم دعوا الى فضلات البلاط والحاشية !

اخلاصها لنابليون ٠٠ فى محنته !

◆ **وأخذت** الامبراطورية تترنح ٠٠ واشتد ترنحها ٠٠ ثم انهارت ٠٠ وكانت « بولين » عند وقوع ذلك الحدث فى جنوب فرنسا ، لا تشعر بما يجرى فى الدنيا لفرط انغماسها فى متعها ٠٠ فلما حمل اليها النبأ فى ٢٦ أبريل سنة ١٨١٤ ، هتفت :

- اذا كانت الامبراطورية قد دالت ، فمعنى ذلك أن شقيقى مات !

وأغمى عليها اذ سمعت الحشود تهتف بسقوط « الطاغية »، فلم تفق الا حين قيل لها ان « نابليون » قد جاءها ، وانه الى جوار مرقدها ‥ وفتحت عينيها فرأته ‥ وكان فى زى ضابط نمسوى ‥ وسمعته يقول :

ـ ان الاشقياء يريدون أن يقتلونى ، ولذلك لم أر بدا من التنكر لافلت منهم ‥

وعلى الرغم من حرج الموقف ، ومن الاخطار المحدقة ، فان « بولين » فاجأت أخاها قائلة :

ـ ولكننى لا أستطيع أن أقبلك وأنت فى هذا الزى !

وفى سبيل ارضائها ، خلع الثوب الاجنبى ‥ ومكث معها ستا وثلاثين ساعة قبل أن يفارقها الى منفاه فى جزيرة «البا» ‥

ومن الانصاف أن نذكر انها الوحيدة من آل « بونابرت » التى تجردت من أنانيتها فى ساعة الضيق والنكبة ، فراحت تلح فى أن ترافق «نابليون» الى المنفى ‥ ولكنه أصر على أن لايجيب رجاءها ‥

وما كان ذلك الالحاف هو كل مظاهر تجردها عن الانانية ‥ فالواقع انها باعت كل حليها ومجوهراتها لتضع ثمنها تحت تصرف أخيها ‥ وهى تضحية عظيمة من غانية مفتونة مثلها ‥ وأثناء اقامته فى منفاه كانت هى الوحيدة ـ أيضا ـ التى زارته فى جزيرة « البا » مرارا ‥

تبيع حليهــا ‥!

◆ **وتكرر** نفس الشىء عقب فرار « نابليــون » من منفاه ، وعودته الى السلطان لمائة يوم ، ثم هزيمته فى « ووترلو » ‥ فقد عقدت العزم على أن تلحق به فى جزيرة « سانت هيلانة »، لولا أن المرض تغلب عليها ‥ وكان فى هذه المرة مرضا حقيقيا لا مصطنعا ‥ ومع ذلك ، فهو لم يقعد بها عن أن تبيع كل ما بقى لها وترسل ثمنه الى أخيها لترفه عنه في وحدته وغربته الموحشة في المنفي !

وكانت وفاة « نابليون » فى سنة ١٨٢١ الصـــدمة التى حطمت كيانها تماما ، فلم تقم لها بعدها قائمة ، ولا استطاعت أن تقوى عقبها على المرض ٠٠

وعاشت عامين محطمة ، معلولة ، ثم اشتد بها الســـوء فى سبتمبر ١٨٢٣ ، فقضت عامين آخرين وهى ميتة حية ٠٠ أو حية ميتة ٠٠ حتى اذا كانت سنة ١٨٢٥ ، تناهى اليها نبأ عن اختطاف بعض رجال العصابات فى « فلورنسا » لاحد الاصدقاء القدامى ، واصرارهم على أن لا يخلوا سراحه الا لقاء فدية ٠٠

وكانت صحتها أضعف من أن تحتمل النبأ ٠٠ فأخذت أنفاس الحياة تهمد فى جسدها الهزيل الذى هده المرض ٠٠ كما هد الانزعاج عليها « زوجها » الامير بورجيز ، الذى كان ما يزال مقيما على حبها ، برغم كل شىء !

وفى التاسع من يونيو من ذلك العام ، أحست بانتعـــاش طارىء ، فطلبت مرآة ، وأخذت تتأمل على صفحتها صورة وجهها النحيل الشاحب الذى برزت عظامه ٠٠ وما لبثت أن تمتمت فى ارتياح : « ما زلت جميلة ! »

ثم استلقت فى فراشها فى هدوء والمرآة فى يدها ٠٠ وزحفت السكينة على الوجه الباسم رويدا ، بينما كانت أنفاس الحياة تتسرب من صدرها ٠٠

وماتت « ملكة الغـــواية » ٠٠ فى الخامسة والاربعين من عمرها !

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضيـة من كتابى ، الكتـب الاتيـة على التوالى : «كيـف تصارح أولادك وبناتك بالحقـائق الجنسية » للعالم النفسانى ماكدونالد لاديل ، ثم «طريق السعادة الزوجية» لفردريك برينك ، و «مركب النقص» تأليف و. ماكبرايد، و «حواء الجديدة» ـ مرشـد المرأة العصرية المستنيرة الى سعادتها ، قبل الزواج وبعده ـ للدكتور كورتنى بيل، ثم « كيف تقهر الخجل » تأليف س. تيار ، و «كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » لجون كنيدى ..

ثم قدمت لك فى الاعـداد التسعة التالية ، من فنون الحياة التى شرحها المفكرالعالمى «اندريه موروا»: فن الحب، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فـن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم انتقلت بك منذ العدد (١٦) من صحبة اندريه موروا المتعة الى صحبة مفكر عالمى آخر هوالفيلسوف الانجليزى المعاصر « برتراند رسـل » فى كتابه المشهور « غزو السعادة »

واليوم أقدم لك فيما يلى كتاب فرويد الخالد « التحليل النفسى » الذى أحدث انقلابا فى تاريخ علم النفس ، وكان أساس النظر الى « المشكلة الجنسية » باعتبارها منشأجميع المشكلات النفسية!


PSYCHO
ANALYSIS
BY
SIGMUND FREUD
سيجموند فرويد
التحليل النفسي
للأحلام .. والغرائز الجنسية .. والأمراض العصبية

١ ـ نظرية الخطأ ودلالاته النفسية

◆ **من** شأن الاسلوب المعتاد الذى درجنا على سـلوكه فى التفكير ، أن يتخذ ازاء « التحليل النفسى » موقفا معاديا ٠٠ فليس مما يروق لعقولنا التسليم بالفكرة التى يقوم عليهـا « التحليل النفسى » ٠٠ الفكرة القائلة بأن العمليات الذهنية ، أى العقلية ،عمليات لا شـعورية فى أصلها ـ أى تنبعث عن بواعث فى نفوسنا ولكنا لا نفطـن الى وجودها ـ وأن الدوافع « الجنسية » تقوم بدور كبير ، ذى أهمية خاصة ، فى خلق الاسباب المؤدية الى الاضطرابات العصبية والعقلية ٠٠ **بل ان دور هذه الدوافع الجنسية أكبر من هذا بكثير ، اذ أنها ساهمت بنصيب يفوق كل تقدير ، فى تحقيق أسمى ما بلغه العقل من انتصارات ثقافية ، وفنية ، واجتماعية ٠٠**

والعوامل النفسية التى تكمن وراء الاخطاء ـ بشتى أنواعها التى سنفصلها فيما يلى ـ هى خير الادلة على أن الحوافز تخضع لتأثير العقل الباطن ، أى الامور التى تكمن فى أذهاننا دون أن نفطن اليها ٠٠ ونقصد بالاخطاء تلك الظواهر العامة ، المألوفة، التى تبدر عن كل شخص سليم البنيان والعقل ٠٠ كهفـوات اللسان ، وزلات القلم ، والتحريف فى القراءة أو فى التقاط الاذن لما يوجه للمرء من كلام ٠٠ وكالنسـيان الموقوت لبعض الاسماء ، والسهو عن المواعيد، وعدم وضع الاشياء فى أماكنها، أو الغفلة عن الاماكن التى وضعت فيها ٠٠ الخ

ماذا وراء زلات اللسان ؟

◆ **ومع** أن هذه الاخطاء من الاحداث التافهة ، والظـــواهر العارضة الطارئة ، الا أنها فى الواقع تنطوى على معان خاصة تكشف عما فى نفس مرتكبها ‥ ولا ينبغى أن تؤخذ على أنها نتيجة تعب ، أو انفعال ، أو عدم انتباه ‥

فالاخطاء المطبعية مثلا تكشف بسهولة عن الحوافز النفسية الكامنة فى عقل الانسان الباطن ‥ من ذلك أن صـــحيفة اشتراكية ديموقراطية ـ فى بلد تحت الحكم الملكى ـ نشرت فى وصف احـــدى الحفلات هذه العبارة : « وكان بين الحضور سمو « الكلاون رينس » ‥ وكانت تقصد « الكراون برينس» ـ أى أمير التاج (ولى العهد) ـ ولكن الغلطة المطبعية التى قلبت الراء لاما ، جعلتها « الامير المهرج » !!

وقد يكون لزلة اللسان تعليل ظاهرى ، ولكنها كثيرا ما تنم عن معنى معقول ، وتكشف عن باعث مكبوت ٠ أى أن النتيجة تستحق أن تراعى ـ فى حد ذاتها ـ كعملية عقلية سليمة ، تهدف الى غرض يترتب عليها ، وتنطوى على معنى يقصـــده العقل الباطن ويتمناه‥ من ذلك ما يبدر من شخص يرى صديقا له فى بزة صارخة الالوان ، فيستهجن مظهرها فى نفسه ، ولكنه يريد أن يتملقـــه فاذا به يقول له : « ايه (البهدلة) الهايلة دى ؟ » ‥ بدلا من : « ايه (البدلة) الهايلة دى ؟ » ‥ وزلة اللسان هنا هى فى الغالب تعبير عما جال فى ذهن صاحبها من رأى ‥

وفى بعض الحالات ، تحرف زلة اللسان الكلمة فتضيف المعنى الذى فى نفس صاحبها الى المعنى الذى يريد أن يتظاهـر به ، كأن تهم بأن تقول لزائر : « شرفتنا » فاذا بها تنطلق من لسانك : « ضرفتنا » ‥ فهنا يجمع اللسان بين « ضايقتنـــا » و « شرفتنا » !

النسيان وفقدان الاشياء وتحطيمها

◆ **من** هذه الامثلة نرى أن ما حدث هو اجتماع أو تعارض معنيين مختلفين من الكلام معا ـ وكلا المعنيين مقصود ـ أى أن هذه الزلات أو الهفوات ليست عفو الصدفة ، وانما هى تمثل أعمالا أو تصرفات عقلية جدية ، لها دلالاتها ومعانيها ٠٠ ومع ان الشخص الذى يقع فريسة لزلة اللسان قد يبرىء نفسه من المعنى الذى يستشف من قوله ، الا أن تحليل ما يجرى فى ذهنه كفيل بأن يؤكد النية الخفية التى يضمرها ٠٠

وهناك أنواع أخرى من الخطأ : كأن ينسى الشخص اسما مألوفا لديه ويجد مشقة فى تذكره ٠٠ فليس من الصعب فى هذه الحالة أن نحدس أن فى نفسه شيئا ما ضد صاحب هذا الاسم !

ونسيان القرارات أو الامور المتفق عليها، يمكن أن يرجع الى تيار من الشعور يقاومه صاحبه لانه ضد تنفيذ تلك الامور ٠٠

وفقدان الاشياء أمر مؤلم فى حد ذاته ، لذلك قد يكون من الصعب أن نصدق أن المرء قد يهدف الى غرض من وراء اضاعة أشيائه ٠٠ غير ان ثمة حوادث كثيرة تؤكد وجود مثل هذا الغرض ٠٠ **من ذلك أن شابا فقد قلما كان يعتز به الى حد كبير، لانه كان هدية من زوج أخته ٠٠ وقد ظهر أنه تلقى رسالة من هذا الشخص ـ قبل ضياع القلم بأيام قلائل ـ جاء فيها : « اننى لا أجد من الوقت ولا من الرغبة ما يحدو بى الى أن أشجع فيك استهتارك وتكاسلك ! »** ٠٠ وكم من حوادث من هذا القبيل، تؤكد جميعا ان المرء يفقد عادة الاشياء التى يتخاصم مع من أهداها اليه ، فلا يعود راغبا فى كل ما يذكره به ٠٠

وكسر الاشياء أو تحطيمها حين تقع من أيدينا مثلا دون قصد ـ ظاهريا ـ انما هى وسائل أخرى يستعملها العقل الباطن لتحقيق نفس الغرض !

ليست العبرة بالخطأ وانما بدلالته

◆ **ومن** ثم فالعنصر الاساسى فى الخطأ ليس شكله أو نوعه ، وانما هو الاتجاه الذى يستغل فيه ٠٠ أما تحقيق المرجو منه فيتم بشتى الوسائل المتباينة ٠٠ ومن ذلك مايروى عن كيماوى ألمانى شهير نسى موعد حفلة قرانه ، فقصد الى معمله بدلا من أن يذهب الى الكنيسة ! ثم ظهر أنه كان ينفر من خطيبته !

مثل هذا التدخل من العقل الباطن ، عامل هام فى علم النفس ٠٠ ففى زلات اللسان ، يكون المرء قد قاوم هذا التدخل وكبته وعقد العزم على أن لا يعبر عن أفكاره فى كلامه ، ولكن هذا الميل المكبوح يظهر نفسه على الرغم من ارادة صاحبه ، اما بتغيير التعبير الذى يعمد اليه المرء ، أو بخلطه بالتعبير الخفى المقصود ٠٠

من هذا ندرك كيف تنبعث زلات اللسان ، ومن ثم يبين لنا علم النفس مدى قوة الكفاح العقلى الذى تتطلبه الحياة التى نود أن نهيئها لانفسنا ٠٠ وهو كفاح مبعثه الميل الى أن نقصى عن ذاكرتنا ما لا يروق لنا من أشياء ٠٠

٢ ـ نظـرية الاحلام

تبين « فرويد » من الابحاث التى أجراها على المصابين بأمـراض عصبية ، انهم كانوا يكثرون من ذكر الاحلام التى تراودهم فى نومهم ، وهم يسردون أعراض الامراض التى تنتابهم .. فقاده هذا الى أن يرتاب فى أن للاحلام مغزى فى دراسة الامراض العصبية ٠٠

لماذا لا ينام العقل بنوم صاحبه ؟

◆ **كلنا** نعلم من تجاربنا العـــادية أن الحالة النفسية التى يخلفها فينا أى حلم ، تظل تلازمنا ـ بعد اليقظة ـ طيلة اليوم ! فما هو الحلم ، وما معناه الحقيقى ؟

يبدو أن الحلم حال وسط بين النوم واليقظة ٠٠ اذن ، فما هو النوم ؟٠٠ انه الحال التى يعرض فيهـــا المرء عن الاكتراث بالعالم القائم خارج كيانه والذى يستمد منه مايشغل باله ٠٠ والظاهر أننا ماكنا لنتحمل المضى فى صلتنا بالعالم لولا وجود فترات من الهدنة ، أى التوقف عن التقيد بهذه الصلة ٠٠ فلماذا لا تهجع حياتنا العقلية هى الاخرى وتنام حين ننام ؟٠٠ لعـــل مرد ذلك الى أن ثمة أشياء لا تدع العقل مطمئنا فى ســـلام ٠٠ ثمة منبهات تؤثر عليه فيستجيب لها ٠٠ ذلك أن طبيعة العمليـــــات الذهنية أثناء النوم تختلف عنها أثناء اليقظة ، فالاحلام لاتتألف من صور ورؤى ذهنية فحسب ، وانمـــا هى تختلف فى نواح كثيرة عن الصـــور الذهنية التى تراودنا أثنـاء اليقظة ٠ وقد قام البرهان على أن العوامل المنبهة ـ الداخليـــة منها والخارجية ـ التى تنشط للعمل أثناء النهار ، تظهر متجلية فى الاحلام ، ولكنها فى كل مرة تتمثل بطريقة غير تلك التى تتمثل وتتضح بها فى المرة الاخرى ٠٠ **فمن الاحـــلام مايكون مشوشا ، مبلبلا ، غير ذى معنى ، ولكن منها مايكون ذا معـــان مقبولة معقولة ٠٠ وكثيرا ماتختلط بهذا النوع الاخير ذكريات من حياتنا اليومية ، أو أمور تتصل بهذه الحياة ، وان كنا لا نجد رابطة واضحة تربط معظم أحلامنا بحوادث النهار الذى سبقها ٠٠ كما أننا لا نجد ضوءا يفسر لنا الاحلام السخيفة ، الغثة ٠**

ولسوف نتبين فيما يلى من بحثنا أن أحلام النهار ـ وهى من نسج الخيال لا من نتاج الرؤية والبصر ـ تشترك مع أحـلام الليل فى صلات كثيرة ٠٠ من ذلك ان كلا من النوعين من املاء دوافع واضحة جلية ، فهى رؤى ومناظر ترضى النزوات المنبعثة عن الانانية والطموح فى أنفسنا ، أو تشبع تعطشنا الى القـوة والسلطان ٠٠ أو هى ترضى شهواتنا ٠٠ الخ

الافكار تطفو الى الوعى أثناء النوم

◆ **أما** وقد افترضنا من البداية أن الاحلام ظاهرة عقلية وليست بدنية ٠٠ فلم لا نسأل الحالم عن معنى حلمه ؟

من المرجح ـ الى درجة كبيرة ـ أن صاحب الحلم يعرف حقا معنى حلمه ٠٠ وكل ما فى الامر انه لا يدرك انه يعرف ، ومن ثم يظن انه لا يعرف !٠٠ وهذا ما تؤكده دراسة الرؤى التى تتكشف أثناء النوم المغناطيسى أو النوم المصطنع ٠٠ ولسنا نتوقع أن يبادر الحالم الى اطلاعنا على معانى حلمه توا ، ولكنا نعتقد انه لن يلبث أن يتمكن من تعرف مبعث الحلم ، ومن كشف نطاق الافكار والشواغل التى انبثق منها ٠٠ ويتأتى هذا عما يسمى بالتوارد الحر للافكار المشتركة ٠٠ اذ أن الشخص يحتفظ فى ذهنه بالافكار الاصلية ، فكرة بعد أخرى ٠٠ فهو فى الحلم يضم الافكار ذات الصلات المشتركة بعضها الى بعض دون أن يعى أو يفطن ٠٠

وليس من الوهم فى شىء أن نذهب الى أن هذه المجموعات من «الافكار» المشتركة انما تترتب على نفس مجموعة « المشاعر » المكبوتة التى انبثق عنها عنصر الحلم ذاته ، ومن ثم فان استخلاصها من الحالم كفيل بأن يفضى الى معرفة العقدة النفسية والمشاعر المكبوتة التى تكونها ٠٠ ذلك لان عنصر الحلم ليس فكرة صحيحة أو تفكيرا صحيحا ، وانما هو بديل يحل محل شىء تكمن معرفته فى نفس الحالم ولكنها لا تتجلى ولا تجد منفذا لتظهر لوعيه ٠٠

ولسوف نتبين ـ لاسباب سنوردها فيما بعد ـ أن الحالم يقاوم ـ دون شعور أو ادراك ـ كل اتجاه لان يربط بين مجموعات الافكار المشتركة وبين عناصر الحلم ٠ ومن ثم فان المعانى الخفية للحلم لا تتكشف الا بمعرفة الافكار الكامنة المضمرة فى نفس الحالم ٠

الاحلام حراس تصد اليقظة عن النائم

◆ **ونستطيع** أن نستمد من فحص أحلام الاطفال أضواء لشرح هذه النظرية ، لان هذه الاحلام يسهل فهمها عادة ، كما انها تكشف نفسها بنفسها فتبدو بمظهرها الطبيعى كصور مباشرة وغير مستخفية لاشباع الرغبات ٠٠ فهى كأحلام النهار لدى الكبار ٠٠ ومن هنا نرى أن تحريف الافكار ليس بظاهرة رئيسية أصلية فى الاحلام ٠٠ **وشبيه بأحلام الاطفال ـ فى هذه الناحية ـ الاحلام التى تترتب على بعض المنبهات البدنية الداخلية كالعطش أو الجوع أو الشهوة الجنسية ٠ فالحلم فى هذه الحالة يعمل على وقاية الحالم من تلك المنبهات التى تحاول أن توقظه من نومه ، ويلجأ من أجل هذا الى خلق نوع من الارضاء قوامه الخلط الذهنى « الهلوسة » ٠٠ أى أن الحلم ـ فى هذه الحالة ـ يقوم بدور الحارس الذى يصون النوم** ٠٠ ولما كانت رغباتنا كثيرا ماتتعارض مع شخصيتنا ، لذلك يشيع الخلط والتحريف والاستخفاء فى أحلامنا ، حتى يتسنى تغطية الرغبات واخفاؤها ٠ وهذا ما يسمى « عمل الحلم » ٠٠ فنرى نفس الحالم تظهر فى كل حلم فتقوم بدور رئيسى فيه ، حتى ولو اضطرت لان تتنكر وتستخفى تماما الى أقصى درجة تتطلبها الظاهرة التى يدور حولها الحلم ٠٠

عند ما تعمد الافكار الى التنكر والاستخفاء

على أن كثيرا مما يبدو فى المنام لا يمكن أن يفسر على ضوء « الافكار المشتركة » أو التوارد المطلق للافكار ٠٠ ذلك لان من عناصر الاحلام ما يكون رمزيا ، ومن ثم يتسنى تفسير الحلم ـ دون سؤال صاحبه ـ اذا ما عرفنا معانى هذه الرموز ٠٠ وليس عدد الاشياء ـ التى تتمثل فى الاحلام بأشكال رمزية ـ كبيرا ٠٠ فهى تنحصر فى الجسم الانسانى ـ عموما ـ والآباء والاطفال والاخوة والاخوات والميلاد والموت والعرى والجنس ٠٠


كابوس !

والمؤكد أن الرغبة فى تحقيق أمنية معينة هو الاصل فى الاحلام المحرفة ، فان عدم تجانس الرغبة مع شخصية صاحبها يؤدى الى كبحها وكبتها ، ومن ثم لا تجد سبيلا الى الظهور الا مستخفية ، متنكرة ٠٠ وحلم الاطفال عبارة عن أمنية يعترف بها صاحبها ٠٠ **والحلم العادى المحرف ـ أى الذى يتألف من رؤى مغايرة للحقائق الى درجة ما ـ هو تفريج مستخف لرغبة أو أمنية مكبوتة ، يحاول صاحبها أن لا يعترف بها ٠٠ أما الحلم المزعج ـ أو الكابوس ـ فهو تفريج صريح لرغبة مكبوتة ٠٠ والخوف الذى يلازم هذا النوع من الاحلام عادة ، ينبعث عن أن الحالم يوشك أن يفطن الى الرغبة التى كبتها ، ومن ثم فهو يجاهد كى لا يعترف بوجودها فى نفسه !**

وهكذا تكون الرغبة الصادرة عن الجزء اللاشعورى من الذهن ـ أى التى تخالج الانسان فلا يفطن اليها ولا يشعر بوجودها ـ هى مبعث النشاط العقلى فى الاحلام ٠٠ ويكون العامل الذى يثيرها وينبهها **عبارة عن بعض مخلفات متبقية من الافكار التى** خالجت النائم فى النهار السابق

٣ ـ نظرية التحليل النفسى للامراض العصبية

◆ **نتطرق** من النظريتين السابقتين الى الحديث عن نظرية التحليل النفسى للامراض العصبية ، فان ما جاء فى الفصلين

السابقين يساعدنا على ادراك ظاهرة الاختلال العصبى ، ويقوم دليلا على أن هذه النظرية من نتاج التجربة ، وانها تقوم على الملاحظة والمشاهدة المباشرتين وما تفضيان اليه من نتائج ..

والواقع أن الاعمال والحركات والهوس - وكلها تعتبر من عوارض المرض العصبى - ليست مجرد طوارىء عابرة ، وانما هى ظواهر لها بواعثها ومعانيها وأغراضها .. فهى تدل دلالة بسيطة على عملية عقلية أكثر أهمية مما يبدو للعين العادية .. عملية لا يفطن اليها المرء المصاب نفسه ..

المريض يجد متعة فى الجهل بما فى نفسه !

وهكذا نرى أن العوارض العصبية تنطوى على معان ، مثلها مثل الاخطاء والاحلام ، كما أنها ترتبط بالاحداث التى تعرض لحياة المريض . **ويمكن ايضاح هذا بالرجوع الى أعراض الحالات العصبية التى يتعلق فيها المريض بنقطة معينة فى ماضيه ، ومن ثم فهو ينفر من الحاضر والمستقبل . ويلاحظ هذا بوجه خاص فى حالات الامراض العصبية الناشئة عن حوادث ، أو عن التعرض لتجارب رهيبة مفزعة ، اذ يظل الحادث يعاود المريض فى أحلامه بانتظام ..**

والمريض يجهل دائما معانى الرموز التى تتراءى له ، ولكن التحليل يبين باستمرار أنها انعكاس لامور لا يشعر بها ، ولكنها تستطيع تحت الظروف المناسبة أن تتبدى لشعوره وادراكه . من ذلك أن نوبات فقدان الذاكرة أو النسيان ترجع - عند التحليل - الى أحداث معينة توارت فى جزء من الذهن بعيد عن الادراك والوعى . وفى هذه الحالات نرى المريض يعمد الى كثير من وسائل الدهاء والمكر لاظهار المقاومة للعلاج ، لا لانه يبغى الاستمرار فى جهله بالشىء الذى لايدركه - أو بما فى الجزء غير الواعى من عقله - فحسب ، وانما لانه يجد أيضا - ولو بطريقه مستترة - قدرا كبيرا من المتعة فى هذا الجهل !

الانفعالات الذهنية بين الادراك والكبت

ولتصوير عدم ادراك العقل لبعض ما يلجه من رؤى وأفكار، يحسن أن نتصور أنه كالحجرة الكبيرة ، وأن الانفعالات الذهنية تتراكم فيه واحدة بعد الاخرى ، كما يزدحم الافـــراد فى الحجرة ٠٠

وتلحق بهذه الغرفة أخرى أقل منها حجما ، يأوى اليهـــا الوعى والادراك ٠٠ وعلى الباب الذى يصل بين هاتين الحجرتين ـ أو بين اللاشعور والوعى فى العقل ـ يقف حارس يفحص الانفعالات الذهنية المتباينة ، ويراقبها ، ثم يمنـــع ما لا يقره منها عن الدخول من الحجرة الاولى الى الثـــانية ٠ **ولا تكون الانفعـــالات التى فى اللاوعى ـ أى الحجرة الخارجيـــة ـ ظاهرة للوعي أو الادراك الذى فى الحجرة الاخرى ٠ وعندما تتقدم الى العتبة التى بين الحجـــرتين ويردها الحارس ، تعجز عن أن تنتقل الى الادراك ، فنسميها « مكبوتة » ٠**

ومن هنا ينشأ المرض العصبى عن كبت الرغبات التى يأبى « الرقيب » أن يسمح لها بأن تنفذ الى الادراك والشعور ٠ وما أعراض المرض سوى الاشباع المفتعل لها ، وله صورتان : اما الارضاء الجنسى ، أوالدفاع ضدالارضاء الجنسى ! ففى حالةالتهوس ـ «الهستريا» ـ يكونالامر الاول هوالغالب ، أما فى حالة الخجل والانطواء ، فتكون الصورة السلبية هى المتغلبة ٠٠

٤ ـ الغريزة الجنسية فى حياة الانسان

> ◆ **وقد تطرق « فرويد » من هذا الى نظريته التى أثارت معارضة شديدة للتحليل النفسى ، بالنسبة للغريزة الجنسية ومكانها من حياة الانسان ، وعلاقتها بالامراض العصبية ٠٠ ويستخدم « فرويد » كلمة « الجنس » فى هذا السياق فى أوسع معانيها**

◆ **يعرف** الانسان « الشبق » ـ أو الجوع الجنسى ـ منذ مولده ٠٠ ويتركز اشباع هذا الجوع خلال السنوات الثـلاث

أو الاربع الاولى من حياة الانسان ، فى اللذة التى يستشعرها من اثارة المناطق الحساسة كالفم والاعضاء التناسلية ٠٠ والطفل فى هذا يشبع نفسه بنفسه ، اذ يجد مآربه الكاملة فى شخصه ٠٠

وقد تظهر على الانسان – منذ سن باكرة – بعض البواعث المتطرفة كالسادية ، أوالنزوع الى القسوة كمصدر للذة الجنسية ٠٠ و « كالماسوتشية » ، أو النزوع الى كشف الاعضاء التناسلية والنظر اليها ولمسها والرغبة فى أن يلمسها الغير ! ٠٠ وكالفضول الجنسى ٠٠ الخ – **وتعتبر هذه النوازع بواكير تشير الى اتجاهات فى الحياة الجنسية عند النضوج ٠٠ فالانحرافات التى تصيب الشخص حين ينمو ويكبر ، ليست سوى مغالاة كبيرة أوتطرف فى نمو أحد هذه الميول المبكرة – التى تعترى المرء فى طفولته – أو فى أكثر من ميل واحد منها ٠٠**

وتبعث هذه النوازع فى الطفل شعورا بالذنب يزداد ويستفحل اذا هدده أحد أو توعده ٠٠ وهذا الشعور يلعب دورا كبيرا فى تكوين خلقه وشخصيته – اذا ظل محتفظا بصحته – وفى تكوين مرضه العصبى اذا مرض ٠٠

الحب الجنسى بين الابن والام ٠٠

◆ **ويحس** المرء فى هذه المرحلة المبكرة من النمو الجنسى – رغم سبقها لمرحلة التناسل – ببوادر الحب الجنسى ، وسرعان مايتجه «الشبق» الى ايثار وتفضيل الجنس الآخر ٠٠ وهذا من شأنه أن يؤدى الى « عقدة أوديب » ، وهى من العقد النفسية بالغة الاهمية فى التحليل النفسى الذى يرمى الى ايضاح المرض العصبى ٠٠ ذلك لان الطفل الذى يشعر نحو أمه – أو الطفلة التى تشعر نحو أبيها – بروابط عاطفية ، لايلبث أن يصاب

بالمرض العصبى فيما بعد اذا لم تخف حدة عاطفته هذه ..

والواقع أن «عقدة أوديب» من أهم بواعث الشعور بالذنب الذى يراود المرضى بأعصابهم ويشقيهم .. بل ان الشعور بالذنب الذى يخامر الجنس البشرى بأسره - والذى يعتبر الباعث الاول للمبادىء الدينية والخلقية - قد لايبعد أن يكون ناشئا عن استفحال هذه العقدة النفسية فى باكورة التاريخ ..

ومن شأن « عقدة أوديب » هذه أن يزداد شعور الابن بالحب لامه ، تصاحبه كراهية مكبوتة للاب قد تشتط الى درجة تمنى موته من جراء روح الغيرة .. أما عند البنت فتتخذ عقدة أوديب صورة الحب الشاذ لابيها ، والكراهية لامها ..!

« عقدة أوديب » لب المرض العصبى

◆ **ولابد** للانسان منذ وصوله الى سن البلوغ من أن يعكف على المهمة الكبرى التى تفضى الى تحرير نفسه من أبويه .. ولا يعتبر أنه خلف الطفولة فعلا الا حين يتم هذا التحرر ، فاذ ذاك يصبح عضوا فى المجتمع ..

ويتمثل التحرر - بالنسبة للابن - فى تخليص نزواته - أو بالاصح شهواته - من الاتجاه الى أمه ، ليستغلها فى نشدان حب مادى آخر ، وفى اصلاح ذات البين مع أبيه اذا كان قد ظل على كراهيته له ، أو فى تحرير نفسه من تسلطه عليه ، اذا كان فى مقاومته للتمرد الصبيانى قد استسلم للخضوع له ..

وتنشأ الحالات العصبية عن عدم تحقيق هذا التحرر .. فيظل الابن طيلة عمره تحت تسلط الاب ، ويبقى عاجزا عن نقل جوعه العاطفى الى هدف جديد .. وكذلك الامر بالنسبة للبنت .. ومن ثم نرى أن «عقدة أوديب» هى لب المرض العصبى أو نواته ..

الصراع بين المثل العليا والشهوات

◆ **ويتلخص** أثر « عقدة أوديب » فى تكوين الاضطرابات العصبية والنفسية فى الكبر ، فى أنها تعمل أولا على خلق نمو أو تطور خاطىء فى الغريزة الجنسية ، بحيث تحجز باعثا أو أكثر من منشطاتها عن النمو الطبيعى وتدع البواعث الباقية تمضى فى نموها حتى تبلغ غايتها النهائية ٠٠ **فاذا ما اعترضت الشخص البالغ الناضج عقبات خارجية قوية تمنعه من اشباع جوعه الجنسى ، اتجه دائما الى الرجوع الى البواعث التى سبق ايقافها عن النمو ، والتى كانت تهيىء له ثغرات للتنفيس عن ذلك الجوع ٠٠**

وأعراض الامراض العصبية النفسية التى تصيب الافراد من جراء « الحرمان » ، ليست فى الواقع سوى أسباب بديلة تعوض المريض عن الاشباع الذى يفتقده ، وتجعل علامات الصراع العقلى تبدو عليه ، اذ يتشبث جزء من شخصيته برغبات معينة ، فى حين يكافح جزء آخر هذه الرغبات ٠٠ ومن ثم يدور الصراع بين الغرائز الذاتية ـ التى تكون شخصية المرء ـ وبين الغرائز الجنسية ٠٠ اذ تكون الذاتية قد كونت لنفسها مبادىء ومثلا عليا لا تلبث أن تجدها متناقضة مع الرغبات والشهوات فى أشكالها الاولية المبكرة !

انعدام الصراع العقلى ينقذ المرء من المرض

◆ **وقد** قلنا من قبل ان الشخص حين تصادفه فى كبره عقبات خارجية تمنعه من اشباع الجوع الجنسى ، يرتد الى البواعث النفسية التى سبق ايقافها عن النمو أثناء التطور الجنسى ٠٠ والحالة التى شرحناها فى الفقرة السابقة تبين كيف يتسبب هذا الارتداد فى خلق الامراض العصبية ٠٠ أما اذا لم يؤد الارتداد الى مطالبة شخصية المرء بتحمل شىء من الحرمان ، فان دواعى الاحتكاك والصراع لا تجد مجالا ، ومن



ثم لا يترتب على هـــذه الحالة شىء من الامراض العصبية ، بل يجد المرء اشباعا لاحاسيســـه وشـــهواته فى بعض أشكال الاشباع المتسترة أو الكامنة ٠٠

أعراض المرض العصبى مظهر مستتر لرغبة مكبوتة

قد يتعرض المرء لموقف يعز فيه اشباع « الجوع الجنسى » فيتحول هذا الجوع من الظهور فى عالم الحقيقة ، الى الانزواء فى أعماق النفس ، حيث يثير نزعات خيالية تمت الى بعض المراحل المبكرة من العمر ، ولو أن العقل الواعى لم يكن يفطـن الى وجودها ٠

والشخص فى هذه الحالة يفقد اتزانه واستقراره ، ولكنه لا يصبح بعد مريضا ــ وان كان مصيره الى ذلك ، اللهم الا اذا وجد منفذا آخر للجوع الجنسى المكبوح ــ **وتظهر أعراض المرض نتيجة الصراع بين الشهوة التى لا يشعر بهـا العقل الواعى ولكنها تكافح لتنبهه الى وجودها ، وبين رغبة شخصية المـرء التى تحاول أن تقمع تلك الشهوة وتحول دون ظهورها فى مجال الوعى** ٠٠ وتكون الاعراض فى هذه الحالة عوامل للتوفيق بين الرغبتين المتصارعتين ، وهى لا تظهر الا مستخفية أو متنكرة فى غير صورتها ، ولذلك لا يفطن المرء الى حقيقتها ٠٠

ومن هنا نرى أن أعراض المرض العصبى تشـــبه أعراض الحلم فى تكوينها ومنشأها ، وفى أن كلا منهـــا تعتبر مظهرا تنكريا لرغبة مكبوتة ٠٠

الفن منفذ للنزوات الغريزية المكبوتة

◆ **والفن** من السبل التى تسلكها النزعات الخيالية الناشئة عن الكبت ، فى سعيها للعودة الى عالم الحقيقة ·· وما الفنان الا شخص طوى جوع الجنس فى نفسه ، فأثار نزعاته الخيالية ·· وهو بهذا الوضع ليس بمنأى عن المرض العصبى ·· ذلك لانه يعانى من حاجات غريزية لا سبيل له الى اشباعها، لذلك فان طول الحنين الى الاشباع لا يلبث أن يتحول من الحقيقة الى محاولة الاشباع بالابتكار والخلق الخيالى ··

وهناك هدف آخر ، ثانوى ، من وراء أعراض الامراض العصبية ·· فان نفس المريض تستخدمها فى اجتذاب الانتباه واستدرار العطف والحب ، أو فى تفادى الامور التى لا تروق للمرء ، أو فى الانتقام للنفس من الغير ، أو فى أخذ النفس بالشدة عقابا لها وتكفيرا عما يخال انه ارتكب من ذنوب !

اختلال عصبى جسمانى ·· ونفسانى

◆ **وينقسم** الاختلال العصبى الى نوعين : أولهما الاختلال الذى يصيب الاعصاب فعلا ، كالنورستانيا ، والتهيج العصبى، و « الهيوكندريا » ، أو الوسواس ··

أما النوع الثانى ، فهو الاختلال العصبى النفسانى ، كالهستريا ، والخبل ··

وفى القسم الاول ، تكون الاعراض فى أغلب الاحوال بدنية تظهر على أعضاء الجسد ·· أما فى الثانى فتبدو الاعراض كحلقات أخيرة فى سلسلة من العمليات والحالات العقلية ·· وكثيرا ما يجتمع النوعان معا ··

والمغالاة فى القلق والتشكك الى درجة التهوس ، ظاهرة غالبة فى هذه الاحوال·· والمعتقد أن أولى حالات القلق تصاحب الانسان عند مولده · **والقلق العادى هو رد فعل الشخصية – أو ذاتية المرء – ازاء الخطر ، وهو اشارة الاستعداد للفرار·· أما القلق فى حالات المرض العصبى فينشأ عن محاولة الشخصية**

الفرار من مطالب الجوع الجنسي التى تساور النفس دون شعور أو ادراك ٠٠ وتعامل الشخصية الخطـر الداخلى ـ أى المنبعث من النفس ذاتها ـ فى هذه الحالات كما لو كان خطر آتيا من خارج كيان المرء ٠٠

لذلك نخاف من رغباتنا وشهواتنا المكبوتة ٠ وقد يحدث أن يتوارى الجوع الجنسى ويتخفى ، برغم عدم اشباعه ـ أو اشباعه بغير الطرق الطبيعية السليمة ـ وينشأ التخفى فى هذه الحالة عن عوامل نفسية ، هى ما نسميه بالكبت والمقاومة أو الصراع النفسانى ٠٠ أو عن عوامل بدنية عضوية ليس هذا مجال شرحها ٠

حب الذات وحب الجنس المشابه

◆ **من** هذا نخلص الى أن الجوع الجنسى قد يكون مرتبطا بالغرائز الذاتية ـ التى تكون الشخصية ـ ارتباطا جزئيا ، أو كليا ٠٠ فاذا كان الارتباط جزئيا فلا بأس ، أما اذا كان الارتباط كليا ، فالمرء يصاب بحب شخصه ٠٠ وهو ما يسمونه « النارسيسيزم » ٠٠ وهذا الداء يختلف عن « الانانية » ، اذ أن حب الذات فى الانانية يتجه الى حب ايثارها بكل ما فيه صالحها ٠٠ أما فى حالة « النارسيسيزم » فان الايثار يمتد ليشمل اشتهاء المرء لجسمه أيضا ! ٠٠ ومن مراحل التطور فى الطفولة مرحلة شبيهة بهذه ، تتوسـط بين مرحلة الاستمتاع باثارة المناطق الحساسة كالفم وأعضاء التناسل وبين مرحلة الحب المادى ، أو على الاصح الحب الذى يتجه الى الجنس الآخر ٠٠

ويتميز مرض « النارسيسيزم » ـ أو حب الشخص لذاته ـ بأن الحوافز والمتع الجنسية للمرء ، تتجه خلاله الى شخصه بنفس الطريقة التى تتجه بها هذه الحوافز والمتع عند الشخص البالغ عادة الى شخص يهواه ٠٠ فهو يهوى نفسه ٠٠ وقد تتجمد هذه الحالة من أيام الطفولة ، لتبعث كمرض فى الكبر ٠٠

وهذه الحقائق تلقى أضواء على داء حب الجنس المشابه ·· أى غرام الذكر بالذكر ، والانثى بالانثى ، غراما جنسيا ·· كما أنها تكشف عن غوامض بعض الامراض العقلية كالعته ، والخبل ، والتهوس «الميلانخوليا» ، مما لا مجال لشرحه هنا ··

كلمة ختامية

هذا كله كفيل بأن يرشدنا الى طريقة علاج الامراض العصبية والدور الذى يلعبه التحليل النفسى فى تتبع خطوات تطور الاختلال العصبى ومبعثه ··

ذلك ان القوى المحفزة والمثيرة لاعراض المرض لا تلبث أن تثبط اذا استطعنا أن ننقل العوامل العقلية - التى تكمن خارج الادراك والشعور - الى نطاق الوعى والادراك ، وقدرناها على أضواء المبدأ الواقعى ·· أى عالجناها على أضواء الحقائق الواقعة ، وهو ما يضطلع به علم التحليل النفسى فى هذه الايام ··

اقرأ . . قريبــا

◆ « .. غادر المركيز «دى سانت افريموند» قصر ملك فرنسا ومضى عبر الممشى الانيق المؤدى الى الفنــاء الخارجى ، حتى بلغ المكان الذى تنتظره فيه عربته ، فاستقلها وأمر الحوذى بالانطلاق بأقصى سرعته .. وفى مثل هذه اللحظات كان يلذ للمركيز أن يرى عامة الشعب يتفرقون مذعورين أمام خيوله الجامحة، ناجين بأنفسهم من أن يقعوا تحت حوافرها فتسحقهم العربة تحت عجلاتها ! .. كان الحوذى يقود العربة كما لو كان يطارد عدوا . وكانت قد تكررت الشكوى والتذمر من اسراع النبــلاء هكذا بعرباتهم خلال تلك الشوارع الضيقة ، الامر الذى يهدد حيــاة عامة الفقراء ويعرضهم لاشد الخطر . لكن أحدا لم يلتفت الى هــذه الشكاوى أو يتخذ فى شأنها أى اجراء ..

وانطلقت العربة تنهب الطرقات والمنعطفات ، والنســاء يصرخن على جانبيها وهن يختطفن أطفالهن من طريقهــا .. وعند منحنى أحــد الشوارع مرت احدى عجلاتها على طفل صغير ! وارتفعت صرخة عاليــة من عدة أصوات ، فكبح الحوذى جماح الخيل .. ووقفت العربة

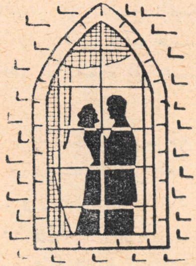
وأطل المركيز من النافذة قائلا فى هدوء : « ماذا حدث ؟ » .. فى الوقت الذى فيه التقط رجل طويل القامة جثة الصغير وأرقدها فوق « فسقية » هناك وراح يبكى عليها وينتحب بصوت مرتفع ..

وتجمهر الناس حول العربة وحدجوا المركيز بنظرات تطل منهــا الكراهية .. أما هو فنظر اليهم كما لو كانوا فيرانا خرجت من جحورها، ثم قال وهو يلقى اليهم بكيس من النقود : « انكم دائما هكذا أيها العامة، تنتشرون فى عرض الطريق ولا تعرفون كيف تحافظون على أطفالكم .. ولكن ، كيف أعرف أنكم لم تلحقوا أذى بالخيل ..؟ »

❋

من «قصة مدينتين» ـ للروائى الخالد تشارلس ديكنز ـ اقرأها كاملة فى العدد الخاص الذى يصدر بهــا من « كتابى » يوم ١٠ أكتوبر ـ أوص البائع على نسختك بالحاح من الآن .

خلف النوافذ المغلقة



عباقرة الإنسانية
فى حياتهم الخاصة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد الستة الاولى من (كتابى قدمت لك فى هذا الباب قصة الحياة الخاصة لفيكتور هوجو ، كما كتبها أديب من اسرته وذوى قرباه هو «ليون دوديه»

وفى كتابى المتاز الاول قدمت لك فى نفس الباب «اعترافات جان جاك روسو» ، وهو الكتاب الذى فتح فى الادب «الشخصى» فتحا جديدا ، اذ كان أول كتاب يتحدث فيه اديب عن نفسه ، «فيشرح» عيوبه قبل حسناته بصراحة وجراة لم يكن للناس عهد بهما من قبل ..

وفى العددين الماضيين من كتابى قدمت لك الفصلين الاولين من الكتاب الممتع الذى أصدره الاديب العالمى «أندريه موروا» منذ أسابيع ، وروى فيه حياة الاديبة والملهمة الخالدة «جورج صاند» ، بالقلم البارع الذى قدم للعالم من قبل قصص حياة كل من : شيللى .. دزرائيلى .. بيرون .. تورجنيف .. فولتير .. ديكنز .. شاتوبريان .. الخ

واليوم أقدم لك الفصل الثالث من هذا الكتاب الشائق الذى سوف نتابع فصوله التالية فى أعداد كتابى القادمة باذن لله

خلاصة ما نشر

◆ فى الفصل الاول من هذا الكتاب ، الذى قدمته لك فى العدد الاسبق ، تتبعنا «شجرة العائلة» التى انحدرت منها جورج صاند ، فاذا كل أفراد تلك السلالة العجيبة شخصيات بارزة : منهم الملوك ، والقواد العظام ، والراهبات الذائعات الصيت ، والممثلات الشهيرات .. الخ - وكانت كل امرأة تولد فى الاسرة تسمى «أورور» ، كما فى القصص الخرافية .. وكان لكل نساء الاسرة أبناء وعشاق ، وكن مولعات بالابناء أكثر من ولعهن بالعشاق !.. وتقاطر سيل الابناء غير الشرعيين فى العائلة بغير حساب ، لكن آباءهم كانوا يعترفون بهم ، فينشأوا فى ترف ورفاهية ، كأبناء الملوك !

وعن هذه السلالة العجيبة ورثت جورج صاند تحديها الجرىء للحياة ، وتعلقها بالارضيات ، وشراهتها الجنسية .. حتى ليمكن القول بحق أن تاريخ أسرتها فيه الكثير من عناصر قصص الف ليلة وليلة !

وكان أبوها - موريس دوبان - ضابط أركان حرب فى الجيش الفرنسى ، فالتقى أثناء الحملة الايطالية بحسناء فاتنة الطرف ضاحكة السن ، تدعى صوفى ديلابورد - وكانت عشيقة قائده ! - وقد كتبت جورج صاند فيما بعد تصفها بقولها : «كانت أمى من النوريات الفجر ، سليلة جنس منحط متشرد .. وقد كانت - فى فترة من حياتها - راقصة ، أو بالاحرى شيئا أحط من راقصة ، فى ملهى من أقذر ملاهى باريس سمعة !.. حتى قيضت لها الاقدار رجلا موسرا انقذها من هذا الوحل ، ولكن ليفرض عليها حياة أكثر وحلا ! وحين التقى أبى بها كانت فى الثلاثين ، تعيش فى دوامة من الفوضى الضارية .. لكنه كان ذا قلب كبير ، وقد أدرك أن الحسناء التعسة ما تزال قديرة على أن تحب ، وتهب قلبها مخلصا لمن تحب !»

لكن موريس أشفق من مصارحة أمه - الوقورة المتزمتة - بحبه لتلك المرأة ذات العفة الجريحة ، وبتفكيره فى الزواج منها .. فلبث يرجىء «الازمة» شهرا بعد شهر ، حتى حملت «صوفى» منه ، وباتت ترتقب يوم وضع حملها بقلب واجف ، فاضطر العاشقان الى مواجهة المحنة المحتومة ، وعقدا زواجهما - سرا - فى ١٦ أبريل سنة ١٨٠٤ ، فى دار العمدة بباريس ، كى يكفلا للمولود اسما شرعيا ..

وفى مساء أول يولية سنة ١٨٠٤ وضعت صوفى مولودة انثى دعتها «أورور» .. فلما علمت جدة الطفلة بالنبأ الفاجع حاولت جهدها ان تلغى زيجة ابنها الفاضحة ، لكنها فشلت .. وأبت أن ترى الزوجة أو الطفلة - حفيدتها - زمنا .. حتى فوجئت يوما بابنها يحمل طفلته الى بيتها ويصعد السلالم قفزا والدموع تتسابق على خديه

وعانقته أمه !.. ثم قبلت ابنته الرضيعة «أورور دوبان» ، التى سنرى نجمها يلمع فى التاريخ باسم «جورج صاند» !

غيرة .. وفاجعـة !

◆ وبعد أسابيع تمت المراسم الدينية للزواج بحضور الجدة «مدام دوبان». لكن علاقات الحماة بزوجة ابنها ظلت متوترة . ولم تلبث الاخيرة أن عادت الى مقر زوجها فى ايطاليا، تاركة طفلتها فى كنف امرأة طيبة من صديقاتها. وبعد عامين قفلت راجعة الى باريس حيث اتخذت مسكنا صغيرا كانت تقضى فيه يومها فى الطهى والحيـاكة وأشغال الابرة ، بينمـا الصغيرة « أورور » تتسلى بتقليب كتبها المصورة التى تحوى قصصا من أساطير الاغريق والاناجيل الدينية . وكانت صوفى تشرح هذه القصص لطفلتها بـذكاء البسطاء ، وتستعيدها اياها ، كما تعلمها الصلوات التى تتلوها قبل أن تنام .. وقد عاشت أورور طيلة حياتها تذكر فى شىء من الحنين تلك الايام الحافلة بالحب الاموى ، والحنان .. والفقر !

لكن صوفى لم تكن مستريحة البال لبقاء زوجها بمفرده فى مـدريد ، معرضا لفتنة حسان أسبانيا السمراوات ، فدفعتها الغيرة الى اللحاق به هناك ومعها طفلتها . وبعد شهر وضعت طفلا ذكرا ، ثم حصل الزوج على اجازته السنوية فانتقل باسرته الى بيت أمه فى (نوهان) ـ بعد أن فتر حقد هذه على زوجته ـ لكن الطفل الرضيع اصيب من الرحلة بحمى قضت عليه بعد وصولهم بقليل ..

ولم تمض أيام حتى خرج الاب على ظهر جواده الذى جلبه معه من اسبانيا ، وفيما هو عائد الى البيت جمح به الجواد والقاه على كومة من الاحجار .. فمات لساعته !

تفاهم .. ثم قطيعة !

◆ وهكذا قضت الاقدار على المرأتين المتنافرتى الطباع أن تتقاسما شجنا واحدا ، بحيث لم يكن بد من أن تتعاونا على الحياة معا ، ولو من أجـل الصبية .. لكن النفور المتأصل فى القلب لم يتلاش تماما ، فكانت أورور كلما نشب بينهما خلاف تنحاز فيه الى أمها ضد جدتها ، وكأنها أدركت مدى احتقار جدتها لامها فأحست بالحاجة الى أن تلعب دور رجل لحمايتها ! وبرغم ذلك فقد تعلقت بها الجدة وصـارت تحرص على تنشـئتها تنشئة أرستقراطية تكفل لها مستقبلا يتناسب مع ذكائها الملحوظ .. بل لقد بلغ من تدليل جدتها لها أنها صارت تناديها باسم ابنها «موريس» ، وتشير اليها فى أحاديثها بكلمة «ابنى» .. وهكذا اشتركت الام والجدة فى غرس شعور الاسف فى عقل الصبية الباطن لكونها لم تخلق «ولدا» يحمى أمه من عدوان

الاقدار ، ويبعث لجدته ابنها الفقيد من قبره ! (وسنرى أن هذا «الحنين الى الرجولة» سوف يدفع أورور فى المستقبل الى ارتداء ملابس الرجال !)

لكن الخلاف بين الام والجدة قدر له أن يصل الى غايته حين رفضت مدام دوبان أن تأوى تحت سقفها ابنة صوفى الاخرى - كارولين - التى أنجبتها من عشيق سابق لموريس .. فلم يكن بد من القطيعة ! ورحلت صوفى عائدة الى باريس ، بمفردها .. فقد عز عليها أن تحرم «أورور» من كنف جدتها ، الذى يهيىء لها مستقبلا باهرا ، وايرادا سخيا قدره ١٥ الف جنيه فى العام !

وأحست الصبية لدى رحيل أمها كأن أحشاءها تتمزق ! لكنها لم تلبث أن نسيت شجنها فى غمرة مشاغلها الجديدة : فقد جلبت لها جدتها من علمها الموسيقى ، واللغة اللاتينية ، والعلوم الطبيعية .. فقرأت الصبية «الياذة» هوميروس وهى فى هذه السن الباكرة !

وفى الشتاء كانت الصبية تصحب جدتها الى باريس ، فتزور هناك مسكن أمها المتواضع ، الحافل بذكريات صباها الباكر .. لكن هذه الزيارات كان ينغصها منع جدتها لها من اللهو واللعب مع اختها غير الشقيقة «كارولين» الامر الذى كانت تعقبه مواقف عنيفة ، وثورات ، ودموع !

ســـقطة !

◆ لكن الجدة أخطأت ذات يوم - فى نوبة مرض وضعف - فصارحت حفيدتها بماضى أمها الملوث قبل زواجها من أبيها ، وكانت فى لهجتها قاسية لا ترحم ، فأحدث ذلك فى نفسية أورور ازمة عنيفة جعلتها ترفع منذ ذلك اليوم راية العصيان والتمرد ، وتهمل دروسها .. فلم تجد الجدة بدا آخر الامر من الانتقال بها الى باريس لادخالها أحد الاديرة !

وتقبلت أورور النبأ بارتياح ، وحين أخذت لترى أمها قبل دخولها الدير ، صدمها منها أنها قابلتها بفتور ملحوظ ، أدركت الابنة منه أن حياة أمها قد ازدحمت بمشاغل جديدة ، ووجوه غريبة ! وحين اقرت الام فكرة ادخال ابنتها الدير ، بكلمات جرحت كبرياء أورور جرحا عميقا ، احست الفتاة - أكثر من ذى قبل - بأن الدير بالنسبة لها أشبه بواحة وارفة تتخلل صحراء حياتها المحرقة !

وفى دير «الراهبات الانجليزيات» بباريس عاشت أورور حياة هادئة ، بالرغم من «شقاوتها» مع زميلاتها ! وكانت شغوفة بالفنون ، موهوبة فى الرسم ، تجيد العزف على القيثارة ، وتهوى الكتابة نثرا وشعرا .. وبمضى



طفـــولة مرحة ..   (تصوير الاستاذ يوسف عبد الشهيد المحامي بالمنيا)



النيل ساعة الاصيل فى الجزيرة ..

(تصوير الاستاذ يوسف عبد الشهيد المحامى)

الشهور دخلت فى عامها الخامس عشر ، وشيئا فشيئا أخذت انفعالات الصبا وحماقاته تخلى مكانها من كيانها لذلك الشعور الغامض بالترقب ، الذى يداهم الفتيات فى هذه السن .. ولم يلبث هذا الشعور أن انحرف فأخذ اتجاها نحو الزهد والتصوف ، بحيث فكرت الفتاة جديا فى أن تصير راهبة ، لولا أن أدرك القس الذى صارحته برغبتها هذه أن الميل ليس متأصلا فى نفسها ، وأنما هو من تأثير عواطف المراهقة المكبوتة ، فنصحها باستئناف اللهو البرىء الذى يناسب سنها .. !

وأطاعته ، فلم تمض ستة أشهر حتى هبطت الحالمة مرة أخرى الى «الارض» ، وبدأت تشغل نفسها بتنظيم حفلات تمثيل مدرسية قامت هى ببعض أدوارها .. لكنها فوجئت ذات يوم بجدتها تستدعيها الى (نوهان) لتصارحها بانها تشعر بدنو أجلها ، ومن ثم تبغى البحث لها عن «زوج» فى أقرب فرصة ، لتطمئن على مستقبلها !

وهكذا أجبرت أورور على ترك الدير الذى كانت قد أحبته واعتبرته «جنتها» .. تركته وهى تزمع العودة اليه فى أقرب فرصة ، بغير ان تصدم جدتها بالرفض صدمة تعرض حياتها للخطر ..

وفى (نوهان) عاشت الاسابيع التالية ترتقب الزيجة المحتومة بفزع شديد ، وهى تتلهى مؤقتا بركوب الخيل ، وتعلم الموسيقى ، واللغة الايطالية، وتمثيل بعض المشاهد من الروايات الاجتماعية .. الخ

والآن تستطيع أن تتابع القراءة :

عروس للبيع !

◆ **لبثت** « أورور » فى (نوهان) تنتظر الزيجة المحتومة بقلب واجف .. والعروض تتوالى على جدتها من جانب طالبى الزواج الذين بلغ مسامعهم صيت وارثة نوهان العتيدة ، وما اتصفت به من المواهب والخلال – والثراء الموعود على الخصوص ! – **وكان أكثر هؤلاء الطامعين فى مال الفتاة أرامل جاوزوا الاربعين والخمسين ، راحوا يحومون حول بيت الجدة باحثين عن فرصة يقع فيها بصرهم على أورور وهى منطلقة بجوادها فى الاحراش القريبة ، كى يعاينوا « البضاعة » عن قرب ، قبل اتمام الصفقة !** ومنهم من عمد الى جمع المعلومات عنها من جيرانها ..

كل هذا والفتاة تجهل أمر هذه المساومات البغيضة التي لو بلغتها لاحنقتها وأثارتها ٠٠ وقد نشرت حديثا فى سنة ١٩٤٩ قصة احدى تلك المساومات بعنوان : « زيجة لم تتم لجورج صاند » ، وتضمنت نص رسالة أجابت بها احدى الجارات على استفسار وصلها من أحد أقربائها ٠٠ وقد جاء فى هذه الرسالة قولها : «لقد رأيت (أورور) عدة مرات فى هذا العام ، وهي ذات وجه صبوح وشعر فاحم ، وبديهة حاضرة ، وثقافة واسعة ، ومواهب موسيقية عالية ٠٠ فهى تتقن العزف على البيانو والقيثارة ، وتجيد الغناء ، والرسم ، والرقص ، والرماية ، وركوب الخيل ٠٠ ومسلكها ينم عن تربية رفيعة ، وثروتها - التى قد تؤول اليها فى أية لحظة - تدر بين الثمانية عشر والعشرين ألفا من الجنيهات فى العام ٠٠»

قبل أن تستيقظ الحواس ٠٠

◆ **على** أن هذه الزيجة لم تتم ، كما لم تتم زيجات كثيرة غيرها عرضت وعرقلتها الظروف ٠ بل عرقلها نفور الفتاة من فكرة الزواج فى ذاتها ، فهى لم تكن مثل سائر الفتيات اللواتى تلح عليهن مطالب حواسهن المتيقظة ٠٠ أو يحلمن بالفارس الجميل الذى يخلصهن من جو بيوتهن البغيض ٠٠ وانما كانت ملكة (نوهان) الحاكمة ، التى تعيش حياة حرة سعيدة فى رفقة جدتها ٠ وكان صديق الاسرة القديم « ديشارتر » يصحبها فى نزهاتها لصيد الغزلان - وهو أول من أشار عليها بارتداء ثياب الرجال فى تلك المناسبات - وحين أصيبت جدتها بنوبة ثانية ألزمتها الفراش ، ألقى « ديشارتر » كل مقاليد الضيعة وشؤون البيت بين يديها اليافعتين ، وأصر على أن يعاملها كامرأة ناضجة ٠٠ بل انه دربها على مساعدته فى عملياته الجراحية التى يجريها لاهل القرية - فقد كان جراحهم وطبيبهم وكيمائيهم الوحيد ! - **فألفت أورور بالتدريج رؤية منظر الدم وآلام البشر ،**

الامر الذى أكسبها واقعية وألزم شفقتها أضيق الحدود ، بل جعلها فى مستقبل حياتها لا تخجل قط من الجسم الانسانى وانما تتحدث عن وظائف مختلف أعضائه الطبيعية بجرأة « علمية » !٠٠ وقد طالما نعتها الكثيرون من عشاقها فيما بعد بافتقارها الى الحياء ٠٠ وصارت واقعية الممرضة المدربة فيها تصدم نساء الهوى أنفسهن !

ذات العيون الاندلسية

◆ **وفى** وقت فراغها من القيام بدور مساعدة الطبيب ، أتيحت لها فرصة الاختلاط بالكثيرين من شبان « لاشاتر » ٠٠ فقد كانت تمتطى جوادها أحيانا لتنطلق به الى البلدة الصغيرة ذات الشوارع الضيقة والمنازل المنخفضة ، حيث تعرفت الى أبناء أصدقاء أبيها القدامى ٠ وكان بينهم شاب يدرس الطب ـ يدعى ستيفان دى جراندسانى ـ رائع الوسامة ، نبيل المحتد ، ولكنه فقير ـ بسبب ضآلة نصيبه من مخلفات أسرته العريقة التى تقاسمها معه اخوته ـ وأخواته ـ التسعة !٠٠ وكان ديشارتر قد قدمه الى أورور ليعطيها دروسا فى التشريح ، فصار يتردد عليها فى حجرتها حيث علقت على الجدار « هيكلا عظميا » ٠٠ وكان طبيعيا أن يقع الشاب فى هوى تلميذته الحسناء ذات العيون الاندلسية والبشرة الاسبانية السمراء والشعر الفاحم السواد ! لكن أورور صدته صدا كريما ، زاعمة أنه ينبغى أن لا يشغل نفسه الا بدروسه ٠٠ والواقع أنها كانت لترحب بالزواج منه ، لولا أنها قدرت سلفا أن وليى أمر الطرفين سوف يعارضان فى اتمام هذا الزواج : فأبوه « الكونت » لن يقبل ابنة « صوفى فيكتوار » زوجة لابنه ، وجدتها لن ترضى لها زوجا مثله عديم الثراء !٠٠ والفتاة نفسها لم تكن يومئذ من النضوج بحيث تتحدى ارادة الاهل

واستمرت تمارس عادات الرجال : تخرج على جوادها بعد

هبوط الظلام ، وترتدى بنطلونهم وقميصهم وقبعتهم ، وتترك قطعا من هيكلها العظمى وجماجمها فوق قطع الاثاث فى البيت أينما حلت ٠٠ ولطالما ورطها زى الرجال فى كثـير من المواقف المضحكة ٠ من ذلك أنها صادفت يوما أثناء احدى جولاتها قصرا قديما من الطراز القوطى ، فتوقفت لترسمه ٠٠ واذا باحدى خادمات القصر تخرج بعد حين لتغازل « الشاب الوسـيم » مغازلة مكشوفة !

على أن مسلكها «الرجالى» سرعان ما أصاب سمعتها بكثير من الرشاش والاقاويل ، التى بلغت مسامع راعى الكنيسـة فبذل لها مرة نصيحة غير لبقة امتنعت بعدها عن الاعتراف عليه ٠٠ كما بلغت الشائعات أمها فى باريس فأرسلت تعنفها ، لكنها ردت على خطابهـا بخطاب حازم تبرىء فيه نفسها ، قالت فى ختامه : « تريديننى أن أستصحب معى خادمتى كلما خرجت ، كى أتكىء على ذراعها ، لكنى لا أرى سببا يبرر ذلك الا فى حالة خوفى من السقوط ٠ ولقد كانت (عجلة المشى) لازمة لى فى طفولتى ، لكنى الآن فى السابعة عشرة ، وقد تعلمت المشى دون معونة من أحد!» ٠٠ وكانت لهجة الخطاب تشى بحقيقة شعورها نحو أمها يومئذ : الشـعور الذى كان ما يزال يحتفظ بالحب القديم ، وان افتقر الى الاحترام !

الظمأ الى المعرفة

◆ **ونضج** ميلها الادبى تدريجيا ، فمضت تذرع بحار الفكر العالمى فى ساعات خلوتها ٠ كانت تأوى الى مخدعها كل ليلة فى العاشرة ، فتخلد الى مطالعاتها حتى الثالثة صـباحا فى بعض الاحيان ٠ وكانت تذكر من تعاليم « الجزويت » هذه العبارة : « ان الشعراء جميعا متدينون ٠٠ أما الفلاسفة فلا تخشيهم ، فهم بازاء الايمان عاجزون ضعفاء ! »

وقد أحبت من الادباء « شاتوبريان » و « جيرسون » ـ مؤلف

(التأملات) ـ لكن التناقض بين فلسفة الاثنين أزعجها وبلبل فكرها وعقيدتها · كان جيرسون يدعوها الى نبذ الطبيعة ، والاسرة ، والعقل ، ويخيرها بين السماء والارض ، باعتبارهما طرفى نقيض !·· فى حين كان شاتوبريان يقول على العكس : « ان جمال الارض ، والطبيعة ، والحب ، هو وحده الذى يظهر لك قوة الحياة ·· التى يتمجد الله فيها ! » ·· وبينما الاول يقول : « نحن أرضيون ، نمت الى الارض ·· ما نحن الا تراب! » ·· اذا الثانى يناقضه بالقول « اننا نار ونور ! » ·· فكان أن توزع فكر أورور بين مفكر يدعوها الى أن تؤمن بغير أن تسأل، ومفكر يفتح لها الباب على مصراعيه كى تسأل وتناقش ، قبل أن تؤمن !

ومضت أورور فى مطالعاتها بجوع النمرة وقوة العاصفة : فأجهزت على مؤلفات الفلاسفة : ارسطو ، وبيكون ، وبسكال ، ولوك ، ومونتسكيو ، ومونتين ·· ومن الشعراء : دانتى ، وفيرجيل ، وشكسبير ·· بغير ترتيب أو نظام ·· ثم تعرفت الى روسو فى كتابه الخالد « اميل » ، فوجدت فيه ضالتها الحقيقية التى أمدت عقلها بالنور والغذاء اللذين يفتقر اليهما ! ·· فقد تسلل أسلوب روسو الى أعماقها كالموسيقى الساحرة ، فاجتاح كيانها اجتياحا ـ « اننى أضعه فى مرتبة (موزار) ·· وقد بت أشاركه تعقله واتزانه ، وحبه للطبيعة ، ومناداته بالاخلاص ·· وبالمساواة التامة ، والاخاء المطلق بين البشر

فتاة تكتشف الدنيا !

◆ **وكان** مدى الحرية التى تمتعت بها أورور فى تلك الآونة ـ والتى أكسبتها ثقة كبيرة بالنفس ـ غريبة بالنسبة لفتاة تعيش فى سنة ١٨٢١ ·· غير ان الظروف هى التى أتاحته · فقد كانت الفتاة تعيش تحت سلطان جدتها ، وجدتها لم يعد لها منذ مرضت أى سلطان ·· وكانت تدين بالطاعة والخضوع لشخص واحد هو مربيها ديشارتر ، وديشارتر كان عاجزا عن تقييد حريتها من فرط حبه الجنونى لها ··

وكانت صحة الجدة قد أخذت فى التدهور السريع : ففقدت ذاكرتها ، وصارت شبه تائهة عن الوعى ، لكن النوم استعصى عليها فلم تعد تجد اليه سبيلا .. حتى لفظت أنفاسها يوم عيد الميلاد سنة ١٨٢١ . وكانت كلماتها الاخيرة الى أورور : « انك تفقدين أخلص صديقاتك .. »

وحين أعدت مقبرة الاسرة لاستقبال نعش القادمة الجديدة ، أخذ (ديشارتر) أورور الى هناك حيث أصر على أن يفتح نعش أبيها ويدعها تقبل رأسه ــ الذى كان قد انفصل عن بقية جسمه ــ وكانت الفتاة فى حال من التأثر والانفعال بحيث بدا لها الامر طبيعيا للغاية ..

وبموت مدام دوبان لم تفقد أورور أخلص صديقاتها فحسب ، وانما فقدت أيضا حصنها الوحيد الذى كان يحميها من شباك الطامعين فى ثروتها .. فأصبحت الآن ، وهى بعد فى السابعة عشرة ، مكشوفة الجناح فى مواجهة أولئك المتربصين بها ، الذين ازداد عددهم ــ وخطرهم ــ بعد أن آلت اليها ضيعة (نوهان) ، وبيت فى باريس ، فضلا عن مبلغ كبير من المال فى البنوك !

وكانت جدتها قد اختارت وصيا عليها « الكونت رينيه فيلينوف » حفيد زوجها من زيجة سابقة ــ فتقرر أن تعيش فى قصره بجهة (شيننسو) ، حيث تشرف زوجته على تنشئتها وتقديمها الى المجتمع اللائق ، بصحبة ابنتها ايما .. لكن أورور أبت أن تعود الى سكنى المدن ــ « التى تجلب الضجر » ــ مفضلة البقاء فى أحضان الريف الذى أحبته .. فلم ير الكونت وزوجته بأسا فى ذلك ، سيما وان هذا الحل يكفل بعد الفتاة عن أهل أمها فى باريس . وهكذا هرع الكونت لزيارتها فى (نوهان) ، فلم تكد تتعرف اليه حتى أعجبها بشخصيته المرحة الجذابة ، وغرامه بالشعر ، الذى كان يحفظ آلاف الابيات منه عن ظهر قلب ! فسرها أن يكون وصيها من هذا الطراز ..

لكن أورورفوجئت بقدوم أمها «صوفى» من باريس، ومطالبتها بحقها الطبيعى فى الوصاية عليها ٠٠ ورغم نفور الفتاة من هذا الحل ، فانها رضخت لامها دون تذمر – لشعورها بأن طاعة الام واجب محتوم – ورحلت معها الى باريس ، بعد أن فوضت ديشارتر فى كل ما يتصل بادارة الضيعة ٠٠

وفى باريس صدمها أن تنصل الكونت وأسرته من كل صلة بها – ما دامت فى رعاية أمها ذات الماضى الجريح – فأدمى ذلك قلب الفتاة ، التى كانت قد وطنت نفسها على محبتهم ، لكنها لم تجد – برغم كل شىء – سبيلا الى تجاهل واجبها البنوى نحو الام التى أنجبتها !

وكان مسلك الكونت سببا فى ترك الفتاة فريسة لطغيان أمها، التى كانت تتأرجح على شفا الجنون الى حد لم تعد معه مسؤولة عن أفعالها الا مسؤولية جزئية ! **ذلك أنها لم تستطع توطين نفسها على مواجهة الشيخوخة ، وباتت تتطلب من الحياة أن تكفل لها سيلا متصلا من الانفعالات العاطفية العنيفة التى ألفتها فى شبابها الحافل بالمغامرات** ٠٠ وبلغ من تنغيصها لعيش ابنتها أنها صارت تختطف من يديها كل كتاب تراها تقرأه ! واتهمتها بالدعارة واحتراف الهوى (كذا) !٠٠ ولم يحل ربيع سنة١٨٢٢ حتى صارت على قيد شعرات من الجنون الكامل المطبق ٠ وهيأ لها جنونها أن تفرض على ابنتها زيجة اجبارية ، برغم نفورها من فكرة الزواج فى ذاتها ٠٠

أيام سوداء ٠٠

◆ **ونتيجة** لهذا الكمد والهم اللذين ناءا بكلكلهما على أعصاب « أورور » المسكينة ، والحنق المكبوت الذى كان يعتمل فى أعماقها ، أصيبت معدتها باضطراب شديد جعلها ترفض تناول الطعام وتفضل عليه الموت جوعا ! ولكن من حسن حظها أن أمها سئمت هذا النضال الدائب قبل فوات الاوان ، فاصطحبتها الى

بيت صديق قديم لزوجها ، كى تقضيا فى ضيافته أياما تريحان فيها أعصابهما ٠٠ وكان الصديق وأسرته المكونة من زوجة وخمسة أطفال يعيشون فى ضيعتهما بالريف ، فسر أورور أن تعود الى كنف الطبيعة الهادئة التى افتقدتها منذ رحيلها عن (نوهان) ٠٠

ولكن لم ينقض على وصولهما الى الضيعة يوم واحد ، حتى أعربت الام عن ضجرها ، وقررت الرحيل !٠٠ كان جنونها قد أصابها بالميل الى تغيير أماكن اقامتها كل حين ، بل وتغيير لون شعرها بالاصباغ بين الآونة والاخرى !٠٠ واذ أحست زوجة الصديق بخيبة الامل التى بدت على الفتاة لدى سماعها بفكرة العودة الى جحيم حياتها فى باريس ، دعتها الى البقاء فى ضيافتها اسبوعا ، برغم رحيل أمها ٠ وكانت معجزة أن قبلت الام هذا العرض ، ربما مدفوعة بالامل فى أن يفضى اختلاط أورور بالاسرة وزوارها الكثيرين من الضباط الشبان الى العدول عن موقفها العدائى بازاء فكرة الزواج ٠٠

وشغفت الاسرة بها ، فلم تلبث أن صارت كواحدة من أفرادها ، تنادى مضيفيها بقولها : « بابا جيمس » و « ماما انجيل » ٠٠ ونسيتها أمها هناك فمكثت بدل الاسبوع شهورا عديدة ، عاودتها خلالها شهيتها للطعام ومرحها القديم تدريجيا ٠٠ بل ان السعادة البادية على أفراد الاسرة جميعا أفلحت فى ازالة نفورها من الزواج الى حد كبير ٠ وسرعان ما بدأ زوار البيت من الشبان يطاردونها باعجابهم وغزلهم ، سيما وقد شاء كرم مضيفتها وطيبة قلبها أن تغض الطرف عن هذه الامور وتترك للفتاة قدرا كبيرا من الحرية ، بل لقد بالغت فى ذلك الى حد تعريضها للخطر !

لقاء فى مقهى !

◆ **وصارت** الاسرة تصطحبها معها فى زياراتها لباريس بين الحين والآخر ٠ وفى احدى المرات كانت برفقة مضيفيها فى مقهى « تورتونى » الذى يحتل رصيف أحد شوارع العاصمة ،

وفيما هى تتناول « الجيلاتى » الذى طلباه لها مر شاب من أصدقائهما ، فدعواه الى الجلوس ٠ كان « كازيمير » ضابطا شابا ، أنيقا رشيقا ، مرح القسمات ، لم يكد يقدم الى أورور ويعرف اسمها الكامل حتى تذكر أن أباه كان من أصدقاء أبيها ! ٠٠ وعلمت هى أن الفتى ابن غير شرعى ـ وان كان معترفا به ـ أنجبه سيد عريق الحسب والنسب من احدى الخادمات ! وكانت أسرة الشاب ذات دخل سنوى يتراوح بين السبعين والثمانين ألف جنيه ، عدا ضيعة فى اقليم « غسقونيا » ٠٠

ولم تمض على لقاء المقهى أيام حتى ذهب صاحبنا يزور مضيفى الفتاة فى دارهما ، وأخذ يشارك أطفالهما ألعابهم كواحد منهم ، وان بدا أن اهتمامه الرئيسى موجه الى ٠٠ أورور !

وفى الايام التالية أشارت الفتاة فى مفكرتها الى « السعادة التى لا تصدق ! » و « الفرح الغامر » ٠٠ فقد كان جميلا أن تعثر آخر الامر على « صديق مخلص » تستطيع أن تركن اليه ٠ وبرغم انه لم يكن فى نظرها وسيما ، وبخاصة لكبر أنفه ، فانها رأت فيه « مرآة للرجولة الكاملة » !٠٠ وتزايد اعجابها به بمرور الايام ، وكان أول ما راقها منه أنه فاتحها فى الزواج قبل أن يطلب يدها من أهلها بالطريقة التقليدية ٠٠ والى جانب ذلك فانها أيقنت أنه لا يريدها لمالها ، فقد كان مقدرا له أن يرث عن أبيه ثروة تفوق ثروتها ـ ولم تكن تعلم يومئذ انه بصفته ابنا « غير شرعى » لا يرث أموال أبيه ، وأن أباه قد اكتفى بتخصيص مبلغ من المال لزواجه ، على أن يحرم بعد هذا الزواج من مستوى المعيشة المترفة التى يحياها وهو أعزب فى بيت أبيه!

الماضى المشين !

◆ **ولم** يكن ليعقل أن تنقضى فترة الخطبة واجراءات الزواج دون أن تعكر الام المخبولة صفوها كل حين بهواجسها والمشكلات المتوالية التى يثيرها فى وجه الخطيبين خيالها المريض ٠٠ **ولعل أطرف أمثلة تلك المنغصات ـ وان كانت فى حينها أشدها**

ايلاما ـ ان المسكينة اقتحمت ذات يوم بيت مضيفى ابنتها كالاعصار صائحة مزمجرة ، زاعمة انها اكتشفت لخطيب أورور ماضيا مخزيا يثبت انه محتال مغامر ينتحل شخصيته المزعومة انتحالا ، ولا يمت لاسرة السيد العريق بسبب أونسب ٠٠ ثم أضافت أنه كان فيما مضى يعمل ساقيا فى احدى المقاهى المتواضعة ٠٠ الخ

وبعد تحقيق وتحريات ، ظهر أن المرأة رأت كل هذه المعلومات والتفصيلات ٠٠ فى حلم !

ولكن كل هذه العراقيل والمنغصات لم تؤخر الزواج الا الى حين ٠٠ ففى العاشر من سبتمبر سنة ١٨٢٢ تم أخيرا زفاف أورور الى « كازيمير دوديفان » ، ثم سافر الزوجان الى (نوهان) حيث استقبلهما ديشارتر مرحبا ، وأعد لهما الدار كى ينعما فيها بشهر العسل ٠٠

القسم الثانى

مدام دوديفان

الشهوة شىء ادنى مرتبة من الحب بكثير ، ولعلها لا تقود ايضا اليه ..

« ألان »

◆ فى القسم الاول من هذا الكتاب تتبعنا قصة اسلاف جورج صاند لاربعة أجيال ، ثم حياتها هى منذ ولدت حتى تزوجت .. وفى هذا القسم الثانى سنقرأ قصة ـ أو بالاحرى «قصص» حياتها بعد الزواج، وقد صارت تدعى «مدام دوديفان» ..

◆ **وأحست** أورور لدى عودتها الى (نوهان) بشعور من الوحشة والغربة ٠٠ كيف لا وهى تشارك الآن رجلا غريبا فراش جدتها الكبير المزين بريشات فى قوائمه الاربع !؟٠٠ على

أن أورور كانت قد اعتزمت أن تسعد فى زيجتها • وفى هـذا كتبت فيما بعد فى مفكرتها : « فى ذلك الوقت كنت بريئـة وساذجة للغاية ! » والواقع أنها كانت ما تزال تعيش فى جـو الدير « الروحى » ••

ولم ينقض على الزواج شهر حتى أدركت أنها حامل ، ودخلت فى تلك الفترة من التبلد المبارك الذى يصاحب فى العادة جميع حالات الحمل الطبيعية • وفى هذه الفترة لابد لاى زوج به ذرة من الانسانية أن يظهر العطف والرعاية للمرأة التى توشك أن تمنحه نسلا ! وبالفعل كان كازيمير خلال شتاء سنة ١٨٢٢ ـ ١٨٢٣ مثلا للحدب والحنان ، والحرص على ارضاء جميع نزوات أورور ورغباتها •• أما هى فقد اعتراها خمـول ذهنى ، جعلها لا تأسف على هجرها المؤقت لكل ألوان النشاط العقلى أوالمطالعة الجدية • وفى الاوقات التى كان الزوج يقضـيها خارج البيت فى ممارسة رياضة الصيد المحببة لديه ، كانت الزوجة تحيك بعض الثياب للطفل القادم وتغيب فى عالم ممتع من الاحـلام السحرية كلما اختلج الجنين أبسط اختلاجة فى أحشائها !

وحين اقترب موعد الوضع غادرت (نوهان) مع زوجهـا الى باريس ، حيث استقرت فى جناح مفروش من « أوتيـل دى فلورنس » •• وهناك ، فى ٣٠ يونية سنة ١٨٢٣ ، ولد طفلهـا « موريس دوديفان » ، كبير الجسم جم الحيوية ••

الرجل رأس المرأة !

◆ **على** أثر عودة الاسرة الصـغيرة الى (نوهان) ألقى عبء ادارة الضيعة على عاتق الزوج ـ بعد اعتزال ديشارتر العمـل بحكم شيخوخته ـ فتعين على الزوجين أن يقضيا الخريف فى والشتاء فى الريف • وبدل « الناظر» الجديد كل أنظمة العمل

فى المزرعة ، وباع الجياد القديمة ورمى الكلاب المسنة بالرصاص ٠٠ وأعاد تخطيط ممرات الحديقة وازالة أعشابها ٠٠ فلم تلبث أورور أن شعرت من تغير معالم الامكنة كأن جزءا من ذكريات صباها الحلوة قد اجتث من حياتها الى الابد ٠ وأصابهـا ذلك بما يشبه الحنق على اسـتبداد الازواج بالتحكم فى كل شىء ، وانعدام المساواة فى الحقوق بين الجنسين ٠ أو ليس من أدلة ذلك أن الزوج يزنى فيعامل بمنتهى التسامح ، بينما لو زنت الزوجة لما كان مصيرها أقل من السجن ؟٠٠ الى آخر أمثـلة عبودية المرأة للرجل !

وكانت فترة « التبلد المبارك » التى صاحبت الحمل قـد انتهت ، فعادت « مدام دوديفان » ـ مغتبطة ـ الى كتبها الحبيبة ومطالعاتها ٠٠

ويقول البعض ان اختلاف الاذواق والميول بين الزوجين هو ضمان السعادة الزوجية ٠٠ لكن مدام دوديفان تحققت من خطأ هذه النظرية حين صارت تحاول اثارة اهتمام زوجها بمطالعـة الكتب التى تعجبها ، فكان يدركه النعاس وهو يقرأ ، من فرط ضجره ، فيسقط الكتاب من يده !٠٠ وأحيانا كانت تحـدثه فى الادب والشعر ، فاذا هو لم يسمع بأسماء المؤلفين الذين تحدثه عنهم ، حتى لينظر اليها فاغر الفم من الدهشة !

وحين تصف له خلجات قلبها وعواطفها ، ومعتقداتها الدينية، يهز كتفيه فى غير مبالاة قائلا ان ذلك كله من تأثير اضطرابات عصبية أصابتها فى الصغر !

ولكم حاولت أن تجعله يتذوق الموسيقى ، لكن مجرد سماعه صوت المعزف كان يكفى كى يحمله على الفرار من الغرفة ! ٠٠ وبالاختصار فانه لم يكن يحب غير الرماية ، والشراب ، والتحدث فى السياسة المحلية ٠٠

مشكلة أكثر الازواج ..

◆ **ويحدث** أحيانا أن تبادل المتع الجنسية يربط شخصين برباط متين ولو تنافرت طباعهما أو انعدم بينهما التوافق القلبى أو العقلى ، وعندئذ ينطبق عليهما المثل القائل : « فلتعوضهم ليالى عن أيامهم! » .. ولكن أورور أصيبت حتى من هذا الفرض بخيبة أمل . كانت مطالعاتها قد هيأتها للاستمتاع بالجانب العاطفى من الحب ، دون الجسمانى ، فلما مارست هذا الجانب الآخر صدمها الواقع ، بغير أن يشبع رغباتها ..

والمتعة الجنسية بالنسبة للمرأة وظيفة يؤديها الخيال . ذلك أن المرأة ـ ولا سيما فى بداية التجربة ـ ترغب فى أن تشعر قبل كل شىء بأنها محبوبة ، وأن يستحوذ شريكها بدوره على اعجابها !.. والزوج الذى من طراز «كازيمير» ، الشهوانى الانانى ، ينتظر من ربة بيته المطواعة أن تتحول فجأة ، بمجرد أن يضمهما ظلال فراش الزوجية ، الى عاشقة من نساء الهوى ، ملتهبة الحواس ..

وهذا لم يكن حال أورور ، وماكان يمكن أن يكون ، فقدكانت ترى أن متعة الزواج الحقيقية انما هى فى انتظاره وترقبه !.. ومن هنا صدم « كازيمير » اذ ألفاها باردة الحواس .. « انك تقاومين كل تقارب من جانبى .. وكأن حواسك محصنة ضد كل محاولة منى لاثارتها .. »

وكانت بينهما مشادات ، لكنها لم تكن تطول .. فقد كانت ماتزال تقدر فى زوجها صفاته الرزينة : شرفه ، وطاقته العاطفية ، وأبوته الحكيمة .. وكان الزوجان يبدوان نعم الرفيقين . وفى فترات غياب كازيمير كان يرسل اليها خطابات

تفيض بأرق العواطف وأعذبها .. خطابات لها من القوة مايستطيع أن يحول الزوج الشهوانى فيه الى ذلك العاشق الروحى الذى كانت العذراء الغريرة قد حلمت به فى الايام الخوالى ..

اقرأ الفصل التالى فى «كتابى» القادم

يحكى عن العظماء

◆ **كان** الصحفى المليونير «وليم راندولف هيرست» قد دعا الفنان «ويل روجرز» لقضاء عطلة نهاية الاسبوع فى قصره بضاحية «سان سيميون» ، مع نخبة من علية القوم .. واثناء ذينك اليومين ابدع روجرز فى الترفيه عن الحاضرين بفنونه التمثيلية .. وبعد عودته الى العاصمة بأيام ، ارسل الفنان الى المليونير «فاتورة» ببضعة آلاف من الدولارات ، اجرا له عن «النمر» التى عرضها ، باعتباره فنانا محترفا !.. فاغتاظ هيرست واتصل بروجرز بالتليفون ، موبخا اياه فى لهجة احتجاج: «انا لم اتعاقد معك باعتبارك فنانا ، وانما دعوتك كضيف! !»

فما كان من روجرز الا ان اجابه فى هدوء لاذع : « عندما يدعونى احد كضيف ، فانه يدعو معى زوجتى أيضا .. أما اذا دعيت وحدى فاننى أذهب باعتبارى فنانا محترفا !»

ودفع هيرست الفاتورة صاغرا !

البيت والعائلة والطفل

نحن وأكبادنا



عزيزى القارىء ..

◆ فى هـذه القصة يعود بنا ((سومرست مـوم)) الى خرافـات ((الحواديت)) التى كـان يحلو لنـا فى الطفولة أن نسمعها من الجـدات .. ولكن وراء الخرافة حكمة : فما أشبه الطائر الصغير بتلـك الـدول التى استضعفتها بلاد ((سومرست موم)) واستمرأت خيراتهـا ومحاسنها ومزاياهـا ، فشاءت ان تحبسـها فى قفص .. وياليته كان ذهبيـا كقفص الطائر الصغير !.. فهل ترى فهم قومه المغزى الكامن وراء خرافتــه ؟ .. وهل تراه كان يرمى الى هذا المغزى حقا ، وقد أثار الانصاف قلبه وطغت المثالية على نزعة الاستعمار المتأصلة فى طبيعته كانجليزى ؟

وقد قدمت لك فى هـذا الباب فى الاعداد الماضية من كتابى القصص التالية ، مبسطة للاطفال :

- حلم ليلة صيف : شكسبير
- أوليفر تويست : تشارلس ديكنز
- الصندوق الطائر : هانز أندرسن
- الليلة الثـانية عشرة : شكسبير
- رحلات جوليفر : جوناثان سويفت

وفى الاعداد القادمة اقدم لك المزيد من هذا اللون من القصص ..



الأميرة «سبتمبر»!

أحدث قصة لسومرست موم



◆ **كان** لملك (سيام) فى البداية ابنتان ، سمى آحداهما « الليل » والاخرى « النهار » ٠٠ ثم رزق بابنتين أخريين ، فبدل اسمى الاولين وأطلق على الاربع أسماء الفصول : «الربيع» و «الخريف» و «الصيف» و «الشتاء» ٠٠ على أنه لم يلبث أن رزق على مر الزمن بثلاث أخريات ، فعاد يغير أسماء بناته ليطلق عليهن ـ وقد صرن سبعا ـ أسماء أيام الاسبوع ٠٠

غير أن الحيرة تملكته عندما رزق بابنة ثامنة ، فلم يدر ماذا يسميها ٠٠ حتى خطرت بباله فجأة شهور السنة الاثنى عشر ، فغير أسماء بناته جميعا ٠٠ سماهن : «ينـاير» و « فبراير » و «مارس» ـ كما تنطق باللغة السيامية ـ حتى وصل الى صغراهن فأطلق عليها اسم « سبتمبر »

وقالت الملكة : « لم يبق بعد سوى أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ، ثم نرتد عائدين الى أول الشهور من جديد !٠»

فقال الملك : « لا ٠٠ لن نفعل ذلك ، لانني أعتقد ان فى اثنتى عشرة ابنة الكفاية لاى رجل ، **وسأجدنى مضطرا اذا تجاوزت هذا العدد الى أن أطيح بعنقك بعد مولد عزيزتنا الصغيرة ٠٠ ديسمبر »**

وبكى الملك مر البكاء اذ قال هذا ، فقد كان يحب الملكة ٠٠ أعمق الحب ! وكان من الطبيعى أن يبعث قوله فى نفسها قلقا وأسى ، لانها كانت تعرف أنه سيحزن كل الحزن اذا ما اضطر الى قطع رقبتها ٠٠ فضلا عن أنها لم تكن تحب أن تموت فى تلك السن المبكرة ٠٠

على أن أحدهما لم ير داعيا للهم ، اذ كانت « سبتمبر » آخر ابنة رزقاها ، ولم تعد الملكة تنجب بعدها سوى ذكور ، أطلقت عليهم الحروف الابجدية حتى وصلت الى حرف الراء ٠٠

✤

◆ **ونشأت** بنات ملك سيام وفى نفوسهن غيظ دائم من جراء ما أصاب أسماءهن من تغير ، وكانت الكبيرات منهن أكثر غيظا من الاخريات ، لتكرر تغير أسمائهن ٠٠ أما « سبتمبر » ـ التى لم تتعرض قط للحرمان من هذا الاسم ـ فقد كانت ذات طباع حلوة لطيفة ٠٠

وكان لملك سيام عادة أرى من الخير للاوربيين أن يتخذوها لانفسهم ٠ كان يمنح الهدايا فى عيد ميلاده ، بدلا من أن يتقبلها من الغير ! ويبدو أنه كان يجد لذة فى هذه العادة ، اذ كان فى كل مناسبة يعرب عن أسفه لانه لم يولد الا مرة واحدة ، ومن ثم فليس له فى كل عام سوى عيد ميلاد واحد ٠٠ وان كان هذا العيد الواحد قد استنزف على مر السنين كل ماكان لدى الملك من هدايا قدمت له عند زفافه ، ومن نفائس كان حكام المدن يرفعونها اليه اظهارا لولائهم واخلاصهم ٠٠

وهكذا حل أحد أعياد ميلاده ذات مرة وهو لا يملك من النفائس مايقدمه لبناته ، فاكتفى بأن أهدى كلا منهن ببغاء أخضر جميل ، فى قفص ذهبى بديع ٠ وكتب على كل من الاقفاص التسعة اسم الشهر الذى عرفت به الاميرة صاحبته ٠٠

✤

◆ **وفرحت** الاميرات التسع ببغاواتهن ، فصرن يخصصن ساعة من كل يوم ليعلمنها الكلام ٠٠ وسرعان ماكان فى وسع الببغاوات جميعا أن تقول باللغة السيامية ـ برغم صعوبتها ـ « حفظ الله الملك » ، وأن تردد بما لا يقل عن سبع لغات شرقية هذه العبارة : « ما أجمل حبيبتى ! »

وذات صباح ذهبت الاميرة «سبتمبر» كى تحيى ببغاءها كعادتها ، ففوجئت بأن وجدته ميتا فى قاع قفصه



الذهبى !٠٠ وانخرطت فى البكاء بحرقة لم تخفف منها مواساة وصيفاتها لها ٠٠ بل انها ظلت تبكى حتى استبدت الحيرة بالوصيفات فأخبرن الملكة ٠٠ ولكن الملكة قالت ان تلك حماقة فارغة ، وانه يحسن أن تأوى الصبية الى فراشها دون أن تتناول عشاءها ٠٠ عقابا لها !

وكانت الوصيفات راغبات فى الذهاب الى احدى الحفلات ، فأسلمن الاميرة « سبتمبر » الى فراشها بأسرع ما استطعن ، وتركنها وحيدة ٠٠

وفيما كانت المسكينة مستلقية فى فراشها ، ماضية فى بكائها ، وقد بدأ الجوع يعضها بنابه ٠٠ اذا بها ترى طائرا صغيرا يدخل الغرفة ٠٠

وانتزعت الاميرة الصغيرة اصبعها من فمها وجلست فى الفراش ٠٠ واذ ذاك شرع الطائر ينشد أغنية جميلة ، عن البحيرة التى فى حديقة الملك ، وأشجار الصفصاف التى كانت تتأمل صورها على صفحة مياهها الساكنة ، والاسماك الذهبية التى كانت تسبح فى الماء متخللة ظلال أغصان الشجر ٠٠

وكفت الاميرة عن البكاء ٠٠ وما أن فرغ الطائر من أغنيته حتى كانت قد نسيت أنها لم تتناول عشاءها ٠٠ وهتفت : « ما أبدع هذه الاغنية ! » ٠٠ فانحنى الطائر الصغير شاكرا ـ اذ أن أهل الفن يولدون وفى طبعهم اللطف والدماثة ، والاستمتاع بتقدير الغير لفنهم ـ وسألها : « هل تتنازلين فتقبلينني بديلا عن ببغائك ؟ انني ـ فى الحق ـ لا أماثله جمالا ، ولكنني من ناحية أخرى أملك صوتا يفوق صوته عذوبة »

فصفقت الاميرة «سبتمبر» طربا وترحيبا ، واذ ذاك قفز الطائر الصغير الى حافة فراشها وراح يغنى لها حتى نامت ٠٠

❖

◆ **وكان** لا يزال جالسا فى مكانه حين استيقظت فى اليوم التالى ، فلمافتحت عينيها ، ألقى عليها تحية الصباح٠٠وأحضرت لها وصيفات الشرف طعام الفطور ، فأخذ الطائر يلتقط الارز من راحتها ويأكل ٠ ثم اغتسل فى قدحها ، وشرب بعد ذلك منه ٠٠ فقالت الوصيفات انهن لا يرين من حسن الذوق أن يشرب المرء ماء اغتسل فيه ، ولكن الاميرة « سبتمبر » قالت لهن ان هذه طباع أهل الفن !

واذ فرغ الطائر من فطوره شرع يصدح من جديد بغناء عذب أذهل الوصيفات اللاتى لم يسمعن له مثيلا من قبل ، مما أثار زهو الاميرة « سبتمبر » وهناءها ، فقالت له :

ـ تعال الآن أريك لشقيقاتى الثمان ٠٠

ومدت أولى أصابع يدها اليمنى فحط عليها الطائر ، ثم انطلقت فى القصر ، تتبعها وصيفات الشرف ٠ ومرت بغرف أخواتها ، بادئة بالكبرى «يناير» ـ اذ كانت حريصة على تقاليد السلوك ـ ثم باللائى يلينها ، حتى «أغسطس» ٠٠

وغرد الطائر لكل أميرة بأغنية غيرالتى ألقاها على سابقتها، فى حين لم تكن البغاوات تستطيع أن تقول سوى : «حفظ الله الملك » ، و « ما أجمل حبيبتى ! »

وأخيرا ، عرضت «سبتمبر» الطائر الصغير على والديها الملك والملكة ، فطربا وأعجبا ٠٠ وقالت الملكة :

ـ كنت أعرف أننى على صواب حين أرسلتك الى فراشك بدون عشاء !

وقال الملك : « هذا الطائر أحسن غناء من البغاوات ! »

واذ كانت الاميرات حانقات مغيظات ، فقد ساءهن ذلك ، وبدت لهن ببغاواتهن عاجزة بكماء فعلا ، فى حين كانت الاميرة



« سبتمبر » تجرى خلال غرف القصر كالعصفور المرح ،والبلبل الصغير يحوم حولها مغردا منشرحا٠٠وظلت هذه الحال عدة أيام، ثم أجمعت الاميرات الثمانى فيما بينهن على أمر ، وسعين الى «ستبمبر» فجلسن في دائرة حولها ، وقد أخفين أقدامهن – كماينبغى للاميرات السياميات أن يفعلن ! – ثم قلن لها : « اننا آسفات لموت ببغائك الجميل يا « سبتمبر » المسكينة ٠٠ وكم يضايقنا ألا يكون لك طائر كطيورنا ، ومن ثم جمعنا نقودنا الخاصة لنشترى لك ببغاء فصيحا ، ذا ريش أخضر وأصفر ٠٠»

وقالت « سبتمبر » : « لست أرى داعيا لذلك لاننى فى غير حاجة الى ما تعرضن ! »

ولم يكن جوابها من الرقة فى شىء، ولكن الاميرات السياميات كن عادة على جفاء فيما بينهن ٠٠ واستطردت « سبتمبر » قائلة : « لدى طائر يغرد لى أشجى الاغانى ، فلست أدرى ما حاجتى الى ببغاء أصفر وأخضر !؟ »

وسعلت « يناير » ، فسعلت « فبراير » ، وتلتها «مارس» ، وهكذا تتابعت الاميرات فى السعال بترتيب أعمارهن ٠٠ حتى اذا فرغن تساءلت « سبتمبر » :

– فيم سعالكن ؟٠٠ هل أصابكن البرد جميعا ؟

– من الحماقة يا عزيزتى أن تعتزى باقتناء طائرك وهو حر يخرج ويدخل كما يشاء ، ويستطيع أن يهجرك فى أى وقت !
وتلفتن فى الغرفة ، ثم رفعن حواجبهن فى دهشة مستفسرات:

ـ هل لنا أن نسألك أين طائرك الآن ؟

ـ لقد ذهب يزور حماه ٠٠

ـ وما الذى يدعوك الى الاعتقاد بأنه سيعود ؟

ـ انه يعود دائما ٠٠

قالت الاميرات الثمانى : «لو أخذت بنصيحتنا أيتها العزيزة ، فلن تتعرضى لخطر فقدان طائرك المحبوب : فعليك اذا عاد اليك ـ ونقول « اذا عاد » لانه لو فعل تكونين سعيدة الحظ ! ـ عليك أن تبادرى الى حبسه فى القفص ، وابقائه فيه ٠٠ فهـذه هى الطريقة الوحيدة التى تطمئنى بها اليه ! »

فقالت الاميرة « سبتمبر » : « ولكننى أحب أن أراه يحلق فى جو الغرفة ٠٠ »

قلن : « اتبعى الطريق الاسلم ٠٠ والا ندمت ! »

ونهضن فغادرن الحجرة ، وهن يهززن رؤوسهن ، وقد خلفن « سبتمبر » فى قلق شديد ، حتى لقد بدا لها أن غياب طائرها قـد طال أكثر مما ينبغى ، فتنازعتهـا الهواجس : ترى ماذا أصابه ؟٠٠ ان المرء لا ينبغى أن يطمئن والنسور تملأ السماء ، والرجال بشباكهم وفخاخهم يتربصون فى كل مكان !

ثم انه قد ينساها ٠٠ أو قد يهـوى سواها !٠٠ وأحست « سبتمبر » بضيق وانزعاج ، فتمنت لو أنه عاد اليها سالما ٠٠ اذن لاودعته القفص الذهبى الذى كان يجثم خاويا متأهبـا لاستقباله ، واستراحت بذلك من قلقها !

وفجأة ، سمعت « سبتمبر » شقشقة خلف أذنها ٠٠ وتلفتت فاذا الطائر الصغير فوق كتفها ، اذ كان قد انساب فى هدوء ، واستقر فى خفة حتى أنها لم تسمعه ٠٠

قالت الاميرة : « لقد كنت قلقة لا أدرى ما أصابك »

فقال الطائر الصغير : « خطر لى أنك ستقلقين ٠٠ والواقع

اننى كدت لاآتى الليلة ، اذ أن حماى كان يتأهب لاقامة حفلة، وقد رغب الجميع فى أن أمكث معهم ، ولكننى خشيت أن تنزعجى »

وكانت هذه القصة نذير نحس للطائر الصغير ، نظرا للظروف التى أحاطت بالاميرة قبل مقدمه ، فأحست بقلبها يخفق فى عنف ، وصممت أن لا تخاطر بتركه حرا مرة أخرى ، ومن ثم مدت يدها فأمسكته ·· ولم يخالج المسكين أى ارتياب ، فقد اعتاد منها هذا العمل ، اذ كانت تستعذب أن تتحسس قلبه وهو يدق فى صدره الصغير ، وكان هو من ناحيته يستعذب قبضتها الناعمة ، الدافئة ·· لذلك شد ما كانت دهشته اذ وجدها تحمله الى القفص ، فتدفعه فى جوفه ، ثم توصد الباب دونه !·· فمكث برهة متبلد الذهن ، لا ينبس بقول أو اشارة ، ولكنه ما لبث بعد لحظة أو اثنتين أن قفز على العصا العاجية التى فى القفص ، وقال لصاحبته :

ـ ما هذا المزاح ؟

ـ لست أمزح ، ولكن بعض قطط أمى تهيم فى القصر الليلة ، وأعتقد انك هنا بمأمن منها ··

فقال الطائر مغيظا : « لست أدرى سببا يدعو الملكة لان تقتنى كل هذه القطط ! »

ـ انهـــا قطط من نوع خاص ، ذات عيون زرقاء ، وذيول منفوشة ، واقتناؤها مقصور على الاسرة المالكة ··

ـ ولكن ، لم وضعتنى فى القفص دون ايضاح أو انذار ؟ ما أظننى أحب مثل هذا المكان ··

ـ ما كان ليغمض لى جفـــن طيلة الليل لو لم أطمئن الى سلامتك ··

ـ حسبنا ·· سأتقبل الحبس فى هذه المرة فقط ، على أن تطلقيني فى الصباح ··

◆ **وأقبل** على عشائه بشهية ، ثم شرع فى الغناء ٠٠ غير انه توقف فى منتصف الاغنية وقال :

ــ لست أدرى ما بى ٠٠ فلست أميل للغناء الليلة ٠٠

ــ حسنا ٠٠ فلتنم !

وعلى هذا دس رأسه تحت جناحه ، فلم تنقض دقيقة حتى راح فى سبات عميق ٠٠ ونامت « سبتمبر » هى الاخرى ٠٠ ولكنها لم تلبث أن استيقظت مع مطلع الفجر ، على صوت الطائر الصغير يناديها بأعلا صوته قائلا :

ــ استيقظى !٠٠ افتحى باب هذا القفص ودعينى أنطلق منه ، فاننى أريد أن أحلق فى الفضاء وندى الفجر يبلل الارض ٠٠

ــ خير لك أن تمكث حيث أنت ٠٠ فى قفص ذهبى جميل ٠٠ صنعه خير صانع فى مملكة « بابا » ٠٠ وقد بلغ من اعجاب « بابا » به أن قطع رأس الرجل حتى لا يصنع قط قفصا آخر على شاكلته !

ــ بل اطلقى سراحى ٠٠ اطلقينى !

وحاول أن ينفلت من بين القضبان فعجز ٠٠ وراح يدفع الباب ولكنه لم يقو ــ طبعا ــ على فتحه ٠٠ وما لبثت الاميرات الثمانى أن أقبلن فشاهدنه ، ثم قلن لسبتمبر انها فعلت عين العقل اذ أخذت بنصيحتهن ، وانه لن يلبث أن يألف القفص ، وان هى الا أيام قلائل حتى ينسى انه كان حرا من قبل !

ولم ينطق الطائر الصغير بكلمة وهن فى الغرفة ٠٠ الا أنهن لم يكدن يبارحنها حتى عاد يصرخ : « أطلقينى !٠٠ أطلقينى ! » ٠٠ فقالت له « سبتمبر » : « لا تكن مغفلا سخيفا ٠٠ انما وضعتك فى القفص لاننى أحبك ، وانى لاعرف ما فيه خيرك أكثر مما تعرفه ٠٠ ألا غن لى اغرودة صغيرة ، وسأمنحك قطعة من السكر ٠٠ »

ولكن الطائر وقف فى ركن من القفص يتطلع الى السماء الصافية ، دون أن يغنى ..

بل انه لم يغرد اطلاقا طيلة النهار .. فقالت له « سبتمبر » :

ـ ما جدوى الكآبة والعبوس ؟.. لم لا تنسى بالغناء متاعبك؟

فأجابها الطائر : « وكيف أغنى ؟.. لا بد لى من أن أرى الاشجار ، والبحيرة ، والارز الاخضر النامى فى الحقول .. »

ـ اذا كان هذا كل ما تبغى فسوف أصطحبك فى نزهة ..

وحملت القفص وانطلقت نحو البحيرة التى تقوم حولها أشجار الصفصاف .. ووقفت عند حافة حقول الارز الممتدة الى أقصى ما يرمى البصر .. وقالت للطائر الصغير :

ـ سأنزهك فى كل يوم ، فانى أحبك ولست أبغى سوى أن أسعدك ..

ـ شتان بين الحالين !.. ان حقول الارز ، والبحيرة ، وأشجار الصفصاف تبدو مختلفة كل الاختلاف اذا تأملتها خلال قضبان قفص !

وعادت به الى القصر ثانية ، وقدمت له العشاء ، ولكنه لم يتناول شيئا منه .. وأقلقها اعراضه هذا ، فسألت شقيقاتها رأيهن فى أمره ، فقلن : « يجب أن تكونى حازمة معه »

قالت : « ولكنه يموت ان لم يأكل »

ـ ان هذا يكون أقصى دلائل العقوق والجحود من جانبه ، اذ أنه يجب أن يعرف أنك انما تفكرين فى خيره .. ولو ساقه العناد الى الموت لكان هذا جزاء يستحقه !

ولم تدر « سبتمبر » أى خير لها فى ذلك ، ولكنهن كن ثمان ازاء واحدة .. وكن يكبرنها .. فآثرت أن تلوذ بالصمت .. وحدثت نفسها :

ـ ربما ألف قفصه بين اليوم والغد ..

◆ **وعند ما** استيقظت فى اليوم التالى ، هتفت فى مرح ترجو له صباحا طيبا ، ولكنه لم يجبها ، فقفزت من سريرها وهرعت الى القفص ٠٠ وسرعان ما ندت منها صرخة مذعورة ، اذ رأت الطائر مستلق على جانبه فى قاع القفص ، مغمض العينين ، كالميت ٠٠ !

وفتحت باب القفص ، ومدت يدها داخله فرفعت الطائر ٠٠ واذ أحست بقلبه ينبض ، تنهدت فى ارتياح ٠٠ ثم صاحت :

ـ استيقظ ٠٠ أيها الطائر الصغير !

وبكت ٠٠ وهطلت دموعها على الطائر الصغير ، ففتح عينيه ، وتبين ان قضبان القفص لم تعد تحيط به ، واذ ذاك قال :

ـ لا أستطيع التغريد ما لم أكن حرا ٠٠ وبدون غناء لا حياة لى ، بل اننى أموت ٠٠

ـ اذن ، فاليك حريتك ٠٠ انما حبستك فى القفص الذهبى لاننى أحببتك فأردت أن أستأثر بك لنفسى ٠٠ وما أدركت قط ان الحبس يقتلك ٠٠ انطلق ٠٠ طر وحلق بين الاشجار المحيطة بالبحيرة ، وحوم فوق حقول الارز المخضوضرة ٠٠ فان حبى لك يجعلنى أنشد لك السعادة كما تنشدها ٠٠

وفتحت النافذة ٠٠ وفى رفق وضعت الطائر الصغير على حافتها ، فانتفض فى وهن ، بينما كانت تقول :

ـ اذهب وتعال كيفما شئت يا طائرى الصغير ، فلن أضعك فى القفص ثانية ٠٠

ـ سأعود لاننى أحبك أيتها الاميرة الصغيرة ٠٠ وسأغرد لك أحب ما أعرف من أغان ٠٠ سأنطلق بعيدا ، ولكننى سأعود دائما ، ولن أنساك ٠٠

وعاد ينتفض وهو يقول : « يالله ! ٠٠ لكم تيبست عضلاتى ! » ٠٠ ثم بسط جناحيه وانطلق محلقا فى الفضاء ٠٠ بينما انخرطت الاميرة في البكاء ٠٠ فمن أصعب الامور أن تضع سعادة من تحب

فوق سعادتك !٠٠ وما أن غاب طائرها الصغير عن بصرها ، حتى أحست بالوحشة تغشاها فجأة ٠٠

وسخرت اخواتها منها اذ علمن بما جرى وقلن أن الطائر الصغير لن يعود أبدا ٠٠ ولكنه عاد فى النهاية ، وحط على كتف « سبتمبر » ، والتقط الحب من راحتها ، وغناها ما تعلم من أغان جميلة أثناء تنقله بين أبدع بقاع العالم ٠٠

وتعودت « سبتمبر » أن تترك نافذتها مفتوحة ليل نهار ، ليدخل الطائر الصغير غرفتها متى حلا له أن يعود ، فأفادها ذلك ، اذ نمت وترعرعت وتألق جمالها الى أقصى الحدود ، حتى اذا بلغت سن الزواج ، زفت الى ملك « كمبوديا » ونقلت على فيل أبيض الى المدينة التي يقيم فيها ٠٠

أما أخواتها ، فلم يكن يفتحن النوافذ قط أثناء نومهن ، ومن ثم ازددن قبحا وزراية مظهر وسوء طباع ، حتى اذا آن لهن أن تتزوجن ، زففن الى مستشارى الملك ٠٠ ولم تؤت كل منهن سوى رطل من الشاى وقطة سيامية !

اعــــلان

تقبل العطاءات بمكتب تفتيش مشروعات رى وسط الدلتا بطنطا عن العمليتين المذكورتين فيما يلى فى التواريخ الموضحة قرين كل منها

١ – لغاية ظهر يوم الثلاثاء ١٠/٢٧ سنة ١٩٥٣ عن عملية الاعمال الترابية والصناعية اللازمة لتوسيع مصرف تلا فى المسافة من المصب الى كيلو ١١/٠٠ وعمل امتداد له فى المسافة من كيلو ١١ر٠٠ الى كيلو ١٦ر٠٠

٢ – لغاية ظهر يوم الخميس ١٠/٢٩ سنة ١٩٥٣ عن عملية تعديل وتوسيع ترعة الرشيدية الشرقية من الفم (مغذى ابيانه) الى كيلو ١٤ر٠٠ وانشاء جنابيات لها

ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات الخاصة بكل عملية من مكتب التفتيش المذكور بتقديم طلب على ورقة تمغة من فئة الخمسين مليما نظير دفع مبلغ ٧٥٠ مليما بخلاف أجرة البريد وقدرها ١٥٠ مليما وذلك لكل عملية على حدة

وعلى المقاولين الاطلاع على الرسومات الخاصة بهاتين العمليتين بمكتب التفتيش بطنطا فى أوقات العمل الرسمية

وكل عطاء غير مصحوب بتأمين مؤقت كامل وقدره ٢٪ من مجموع العطاء الاصلى لا يلتفت اليه اطلاقا

٥٥٩٦

وزارة الصحة العمومية

تقبل العطاءات بادارة مخازنها بالعباسية بمصر لغاية الساعة العاشرة تماما من صباح

(١) – ١٩٥٣/١٠/٢٦ عن مناقصة الحدايد الجاهزة

(٢) – ١٩٥٣/١٠/٢٨ عن مناقصة الصاج المدهون

(٣) – ١٩٥٣/١٠/٣١ عن مناقصة أدوات ومهمات النظافة

(٤) – ١٩٥٣/١١/٢ عن مناقصة البويات والورنيش

وهى لازمة للسنة المالية ١٩٥٣/ ١٩٥٤ وتصرف قوائم المناقصات من ادارة المخازن المذكورة نظير دفع ٢٠٠ مليم لكل منها بموجب طلب على ورقة دمغة فئة خمسين مليما لكل قائمة بخلاف أجرة البريد

٥٥٣٩

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بادارة المخازن بالعباسية بالقاهرة لغاية الساعة العاشرة تماما من صباح يوم

١ – ١٩٥٣/١٠/٢٢ لتوريد الكيماويات واصناف المعامل الزجاجية

٢ – ١٩٥٣/١٠/٢٥ لتوريد الادوية الثقيلة

وتطلب استمارات العطاءات من ادارة المخازن بالعباسية نظير دفع ٥٠٠ مليم للنسخة الواحدة من المناقصة الاولى و ٦٠٠ مليم للمناقصة الثانية وتقدم الطلبات على ورقة تمغة فئة خمسين مليما

٥٥٣٧ پ

وزارة الشئون البلدية والقروية

مصلحة البلديات

يطرح مجلس المنيا البلدى فى المزاد العلنى عن بيع ادوات مستغنى عنها بنادى السباق

وقد تحدد ظهر يوم ٥٣/١٠/٢٢ موعدا للتزايد بديوان المجلس وعلى من يرسو عليه العطاء أن يدفع فورا ٢٠٪ من قيمة العطاء وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة تمغة فئة الخمسين مليما نظير مبلغ ٥٠٠ مليم ٥٥٨٦

اعــلان

يتشرف المدير العام لمصلحة الاملاك الاميرية باحاطة الجمهور أن المصلحة ستعرض للبيع بالتقسيط وبالمزاد العلنى بجلسة ٥٣/١٠/٢٤ أراضى أميرية كائنة بمحافظة الاسكندرية قسم المنتزه والرمل يبلغ مسطحها ٦٣٣٦ ذراع تقريبا مكون من عدد ٥ قطع بثمن أساسى قدره ١٠٠٩١ جنيه وستعقد الجلسة من الساعة ١٠ صباحا لغاية الساعة ١٢ افرنكى ظهرا بديوان محافظة الاسكندرية

وتطلب البيانات من ديوان المصلحة ١٥ شارع منصور بجوار وزارة المالية بالقاهرة أو من ديوان محافظة الاسكندرية ٥٥٦٤

مصلحة البلديات

تقبل العطاءات بمجلس دسوق البلدى حتى ظهر يوم ١٠/١٢/ ١٩٥٣ عن توريد وتركيب مجموعة لتفريغ مياه أحواض الترسيب . وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة تمغة فئة الخمسين مليما نظير دفع مبلغ ٢٥٠ مليما للنسخة وكل عطاء لا يرفق به تأمين ابتدائى قدره ٢٪ من قيمته لا يلتفت اليه .

٥٤٨٦

وزارة الحربية

سلاح الاسلحة والمهمات

تقبل عطاءات بادارة العقود والمشتريات بسلاح الاسلحة والمهمات بالمعادى لغاية الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ١٠/٢٠/ ١٩٥٣ عن توريد مسامير برشام ـ قلاووظ ـ برمه ستارة ـ شيشة ـ قباقيبى ـ فرنفلى ـ ابرة وخلافه

ويمكن الحصول على الشروط مقابل ٢٥٠ مليم يضاف اليه مبلغ ٤٠ مليما اجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة تمغة من فئة الخمسين مليما ٥٥٦٠

محتويات الكتاب

الصور

مطبعة شركة الاعلانات الشرقية



الفنان العالمى «تشارلس توماس» فى دور «ريجوليتو» ٠٠ والفنانة الايطالية «جالى كورشى» فى دور «جيلدا» بنفس المسرحية (التى تقرأها فى هذا العدد)



بولين بونابرت .. ملكة الغواية !

(عن تمثال للفنان المشهور « كانوفا » موجود الآن فى متحف روما)

أقرأ قصتها فى هذا العدد



ترقب .. فى الأسبوع القادم
"كتابى" يصدر عددًا خاصًا "اضافيًا"
بالقصّة الطويلة
قصة مدينتين
أعظم ما كتب الروائى الخالد "تشارلس ديكنز"
قصة الحب النبيل، والتضحية السامية، والمؤامرات
الرهيبة .. فى ظلال الثورة الفرنسية الكبرى!
اذا لم تكن قد قرأت هذه القصة، فهذه فرصتك لقراءتها..
واذا كنت قرأتها .. فاقرأ هذه الترجمة، وهذه الطبعة
.. ثم احكم!
غلاف خلاب بخمسة ألوان - خمسة عشر لوحة من الرسوم
الكبرى الموضحة لمشاهد القصة - الثمن ٨ قروش
أوص بائع الصحف على نسختك بإلحاح من اليوم
كتابى
المكتبة العربية للكتب العالمية
يصدرها حلمى مراد